بديع الزمان الهمذاني
في النثر الأندلسي

دكتـــور
محمد عبد العزيز عبد العزيز عبد الحميد
أستاذ الأدب والنقد المساعد
في كلية اللغة العربية بالمنصورة
جامعة الأزهر

ملخص البحث باللغة العربية

يعالج البحث أثر بديع الزمان الهمذاني وكتاباته في النثر الأندلسي ومدى هذا التأثر، فيقف أولا مع معارضة ابن حزم الأندلسي لبديع الزمان في بعض رسائله بالدراسة والتحليل والنقد، ومدى التأثر والتأثير. ويعالج ثانيا مفاضلة بين بديع الزمان وأبي إسحاق الصابي بالدراسة والتحليل والنقد. ثم يناقش أثر بديع الزمان ومقاماته في كتابات بعض كتاب الأندلس، كابن شهيد الأندلسي، وابن برد الأصغر، لافتا النظر في هذا كله إلى مكانة بديع الزمان وأثره في كتابات الأندلسيين، ومدى هذا الأثر.

ملخص البحث باللغة الإنجليزية

with the influence of Badi'zaman Al-Hamzani and his writings on Andalusian prose and the extent of this influence. He first discusses the opposition of Ibn Hazm Al-Andalusi to Bdi'-Zaman in some of his letters to study, analysis, criticism, and the extent of impact and influence. Secondly, it deals with a trade-off between Badi'zaman and Abu Ishaq al-Saabi with study, analysis and criticism. He then discusses the impact of Badi'zaman and its places in the writings of some writers of Andalusia, the son of the Andalusian martyr, and Ibn Bard the younger, pointing to all this to the status of Badi Zaman and its impact in the writings of Andalusians, and the extent of this effect.

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله رب العـالمين، وبـه نسـتعين، والصـلاة والسلام على سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد

فظاهرة تأثير المشرق في الأدب الأندلسي مـن أهـم الظـواهر الفنيـة البادية فـي أدب الأندلسيين، وقد لاقت اهتماما واضحا من عناية الدارسين، إذ لم تنقطع صلة المشرق بالأندلس منذ دخول العرب تلك البلاد وحتى خروجهم منها، والنتاج الفكري والأدبي هو خير دليل على استمرار التواصل بين المشرق والأندلس.

وقد كثرت الدراسات التي تحدثت في هذا الجانب، وجلها- إن لم يكن جميعها- وجهت اهتمامها إلى الشعر، لذا يحاول هذا البحث أن يعطي جانبا من جوانب النثر الفني حقه من الدرس والبحث، فينشط لبيان صدى بديع الزمان الهمذاني وأثره في كتابات الأندلسيين، ومدى هذا الأثر.

وقد شغل بديع الزمان مكانة متميزة في الأدب العربي، وحظي بنصيب وافر من اهتمام النقاد قديما وحديثا، فهو من أعلام الكتابة في العصر العباسي، إمام في الصنعة غير مدافع، وفارس من فرسانها بلا منازع، تمتاز كتاباته بجودة الرصف، وإحكام النسج، وعمق المعنى، وطرافة التصوير، وفيها من المعاني البارعة، والأفكار الناصعة، والصور الفاتنة البديعة، ما يشهد له بالبراعة، والتمكن من الصناعة.

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع عوامل كثيرة، منها:

- بروز أثر بديع الزمان واضحا لمن يقرأ النثر الأندلسي قراءة واعية، ويتأمل اتجاهاته ومضامينه الفنية، بما يغري الدارس بالكشف عن هذا الأثر، ومداه في كتابات الأندلسيين.
- تعميق الإحساس بالتلاحم الحميم بين أدب المشارقة والأندلسيين، والكشف عن مدى هذا التلاحم، ووضع أيدينا على أشكال التواصل بين كلا الأدبين.
- تنوع صدى بديع الزمان الأدبي وأثره في كتابات الأندلسيين؛ بين معارضات نثرية، ومفاضلة بينه وبين غيره من الكتاب، وتقليد لمقاماته، واحتذاء مذهبه في الكتابة، الأمر الذي يكشف عن مكانته لدى أدباء الأندلس، ومدى عنايتهم بآثاره، ويشهد له بالتفوق الأدبي والفني.
- الكشفُ عن القيم الجمالية والفنية التي ينطوي عليها نثر بديع الزمان، واستجلاؤها، والتحاور مع أبعادها وموضوعاتها.

وقد سبقت هذه الموضوع دراسات وجهت اهتمامها للنثر الأندلسي عامة، وذكرتْ جانبا من أثر بديع الزمان في بعض كتاب الأندلس، منها: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري للدكتور فايز عبد النبي القيسي، والنثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله للدكتور علي بن محمد، والتيار المشرقي في الأدب الأندلسي للدكتور حسن عباس، وغيرها، لكني لم أجد دراسة وافية تشمل أثر بديع الزمان وصداه في النثر الأندلسي، فكانت هذه الدراسة.

وقد قسمت البحث بعد هذا التقديم إلى تمهيد وثلاثة فصول، وخاتمة. تناولت في التمهيد- بإيجاز- التأثير المشرقي في الأدب الأندلسي.

وفي الفصل الأول: (معارضة ابن حزم لبديع الزمان) عرضت للرسالتين بالدراسة والتحليل، شافعا ذلك برؤية نقدية حول البناء النفسي والفكري، والبناء الفني، ومدى التأثر والتأثير.

ثم كان الفصل الثاني: (مفاضلة بين بديع الزمان وأبي إسحاق الصابي) وفيه وقفت مع هذه المفاضلة بالدراسة والتحليل والنقد، لافتا النظر إلى مكانة بديع الزمان وأثره في كتابات الأندلسيين، من خلال الرد على ابن أبي الخصال الذي قدم الصابي على بديع الزمان وانتصر له.

وجاء الفصل الثالث (أثر مقامات بديع الزمان) وفيه وقفت على أثر بديع الزمان ومقاماته في كتابات بعض كتاب الأندلس، كابن شهيد الأندلسي، وابن برد الأصغر.

ثم كانت الخاتمة؛ وفيها أشرت إلى ما تضمنته فصول هذا البحث من حقائق، وانتهت إليه من نتائج. ثم ختمت البحث بفهرس للمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وآله.

د. محمد عبدالعزيز عبدالعزيز عبدالحميد
أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالمنصورة- جامعة الأزهر

تمهيـــد:

التأثير المشرقي في الأدب الأندلسي

كانت الأندلس تنظر إلى المشرق نظرة إكبار وتقدير، وشعور عميق بالحنين إلى أرض الأجداد، ومهد الحضارة الإسلامية والعربية، فقد ولوا وجوههم شطر المشرق ينهلون منه، ويسيرون خلفه، ويقتفون أثره في أكثر شئونهم، ذلك أنهم يرونه النموذج الأمثل الذي ينبغي أن يقتدى به.

ونظرة الإعزاز والتقدير هذه كانت واضحة جلية برزت في كل مناحي حياة الأندلسيين، خاصة الأدبية؛ فقد استحوذ أدب المشارقة على اهتمام الأديب الأندلسي، وكان الشرق قبلته التي يتوجه إليها في أدبه، فهو عنده غاية التفوق الأدبي والنضج الفني، وهذا ما جعل ابن بسام صاحب الذخيرة يعلن عن ذلك في كتابه، فيقول: "إلا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة؛ حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوْ طنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوْا على هذا صنما، وتلوْا ذلك كتاباً محكماً"(١).

وكان طبيعيا أن يتأثر الأندلسيون بالمشارقة في حياتهم، وأفكارهم، وأساليبهم الأدبية والفنية، والسبب في ذلك هو انتماؤهم إلى هذا المشرق، فهو أرض الأجداد، ومنبع الحضارة الإسلامية، ومهد تراثهم الأول(٢)، وقد دفعهم ذلك إلى محاكاتهم، ومعارضتهم، ومحاولة التفوق عليهم، فإذا كان الرافد والمعين واحدا، فالتلاقي والتشابه بين كلا الأدبين- في أكثر الأحيان- أمر وارد لا محالة.

يقول الدكتور إحسان عباس: "ومن الخطأ الكبير ألا يخايلنا عند دراسة الأدب الأندلسي إلا هذا الاستقلال في الشخصية الأندلسية، لأننا ندرس أدبا يستند إلى حضارة مشتركة في الشرق والغرب، فلو لم يكن التقليد مقصودا لكان اكتشافه أيضا محتوما"(٣).

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة: "إذا كان دارس الفلسفة لابد له أن يعتمد قبل خوضه غمارها على رصيد من عميق الإيمان حتى لا يضل، فإن على دارس الأدب الأندلسي- إذا أراد أن يزنه حق وزنه- ألا يخوض فيه قبل أن تكتمل له أسباب النضوج في دراسة الأدب المشرقي وهضمه، لأنه حينئذ لن يفتح فاه دهشة كلما وقع على نص أندلسي بهيج شعرا أو نثرا، وإنما سوف يجد له – غالبا

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسّام الشنتريني (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس،١١/١/١، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م.

(٢) انظر: الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير: د. محمد رجب البيومي ص ٢٧- ٤٠، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الملك سعود الإسلامية، السعودية ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

(٣) تاريخ الأدب الأندلسي(عصر سيادة قرطبة):د.إحسان عباس ص ٣٩، ٤٠، دار الثقافة، بيروت، الثانية ١٩٦٩م.

مثيلا أو قرينا أو أصلا مشرقيا"(١).

بل إن الدكتور شوقي ضيف يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول: "جمدت الأندلس عند صياغة المشارقة ولم تستطع أن تضيف إليها من جديد... إنه ليس هناك إلا التقليد والمحاكاة، وأن يحتذي الكاتب على نموذج مشرقي، فإذا هو يصنع رسائل كرسائل المشارقة، أو يصنع مقامة كمقاماتهم"(٢). ويقول: "والحق أنك مهما قرأت في آثار الأندلسيين فستراهم يرجعون دائما إلى أصول مشرقية، يقلدونها، ويستمدون منها"(٣).

لقد كانت الأندلس تتطلع إلي المشرق في إخلاص ورغبة، وكبرى مناها أن تحرز نفائس مؤلفاته، وروائع آثاره، وأن يرتشف أبناؤها من حياضه، وتنهل من موارده، بل وتعد ذلك من دواعي الفخر، فإذا تشابهت التربة الأدبية من حيث النوع والبذرة والماء، فإن تشابه الثمرة أمر محتوم لا محيص عنه ولا محيد(٤).

إن التقليد والاحتذاء أمر وارد، بل هو من المسلمات، ولم يكن لعجز الأندلسيين عن الابتكار والتجديد، وإنما هو لشعور الانتماء الكامن في نفوسهم إلى المشرق، والرغبة في استمرار الارتباط به، والبقاء على عَبَقِهِ يفيح في كل حياتهم. وهذا كله لا يجعلنا ننكر على الأدب الأندلسي بيئته المتميزة، فقد نشأ فيها شعراء مبدعون، وكتاب بارعون، لكننا نهدف إلى تعميق الإحساس بالتلاحم الحميم بين أدب المشارقة والأندلسيين، ووضع أيدينا على أشكال التواصل بين كلا الأدبين(٥). وهو ما تسعى إليه هذه الدراسة.

لقد راح الأندلسيون يقلدون ويعارضون المشارقة إعجابا بأدبهم، ورغبة في التحدي وإظهار التفوق، وقد احتفوا بهذا الأدب- شعرا ونثرا- وتأثروا به، فراحوا ينهلون من موارده، ويرتشفون من حياضه، وينسجون على غراره، ويقتفون روائع آثاره.

وفي جانب النثر اتسعت النماذج التي أصبح النثر الأندلسي قادرا على محاكاتها وتعددت، إذ أصبح التراث المشرقي لدى الناثر الأندلسي يضم طرائق سهل بن هارون، والجاحظ، وكتاب القرن الرابع الهجري، وبخاصة بديع الزمان الهمذاني(٦).

---

(١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه:د. مصطفى الشكعة ص ١٦، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان السابعة ١٩٩٢م.

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي: د. شوقي ضيف ص ٣٢٥، دار المعارف،القاهرة، الثامنة ١٩٧٧م.

(٣) السابق: ص ٣٣٠.

(٤) انظر: الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير: ص ٣٢.

(٥) انظر:التيار المشرقي في الأدب الأندلسي: د. حسن عباس ص٩، دار الحضارة للطباعة، القاهرة ١٩٩٤م.

(٦) انظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): د. إحسان عبّاس، ص ٢٨٤، دار الثقافة، بيروت، السادسة ١٩٨١م.

وكان بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨هـ)(١) من الكتاب الذين ذاع صيتهم في الأندلس واحتل مكانة واضحة لدى الأندلسيين، وكان لرسائله ومقاماته أثر واضح في كتاباتهم، ونحن إذا تتبعنا كتاب الذخيرة لابن بسام نجده يشيد ببديع الزمان ونثره، بما يؤكد على ما كان يحظى به من شهرة وتقدير، فهو في مستهل هذا الديوان الضخم الذي يفخر فيه بأدب الأندلسيين لم يجد أفضل من بديع الزمان يتحدى بأدبهم أدبه، يقول: "نثر لو رآه البديع لنسي اسمه"(٢).

ويقول في ثنائه على أحد كتاب الأندلس: "إن ذكرت الخيل فزيدها...أو الشعراء فجرولها ولبيدها...أو الكتابة فبديعُ همذان"(٣).

ويشيد بأدب ابن زيدون فيقول: "ولو قُرِعَ سمعُ أبي منصور بما في تضاعيف هذا التصنيف من الشذور، لما كان عنده ابن وشْمَكير بمذكور، ولا أَغْرَبَ بغرائب الصاحب، ولا ببديع البديع"(٤).

وفي ترجمة ابن خاقان لبعض كتاب الأندلس يقول: "وقد أثبتُّ من كلامه البديع، ما يُضاهي به عبد الحميد والبديع"(٥).

وابن حزم الأندلسي(ت٤٥٦هـ) كان من المعجبين بكتابات بديع الزمان، ويراها أقرب إلى البلاغة، والكتاب عنده جميعا "مبعدون عن البلاغة، ومقربون من الصلف والتزيد، حاشا الحاتمي وبديع الزمان، فهما مائلان نحو طريقة سهل بن هارون"(٦).

وفي نفح الطيب قال المقرّي يصف كتابا(رسالة) أرسله إليه أحد معاصريه: "فليت شعري بأي لسان، أثني على فصوله الحسان، العالية الشأن، الغالية الأثمان، التي هي أنفس من قلائد العقيان، وأبدع من مقامات بديع الزمان"(٧).

---

(١) انظر في ترجمته: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي: تحقيق: د.مفيد قميحة ٢٩٣/٤، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م. معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): ياقوت الحموي، تحقيق:د. إحسان عباس ٢٣٤/١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الأولى١٩٩٣م. زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني، تحقيق: د.صلاح الدين الهواري ٣١٥/١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م. وغيرها. وللدكتور عبد الوهاب عزام عدة مقالات عن بديع الزمان ونتاجه الفني. انظر مجلة الرسالة الأعداد: ٣٨، ٤٠ ، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦ لسنة ١٩٣٤م. وللدكتور مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١١/١/١ .

(٣) السابق: ٤٩/١/٣ .

(٤) السابق: ٣٧٢/١/١ .

(٥) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان لابن خاقان، تحقيق: د.حسين يوسف خريوش ٤٤٥/١، مكتبة المنار، الأردن، الأولى١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

(٦) رسائل ابن حزم الأندلسي: تحقيق: د. إحسان عباس ٣٥٢/٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الأولى ١٩٨٣م.

(٧) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:الشيخ أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق: د إحسان عباس،٤٤٨/٢، دار صادر بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م. وانظر أيضا إشادة ببديع الزمان ورسائله ومقاماته: السابق ٦٧٠/٢، ١٥٨/٦.

وفي رسائل ابن أبي الخصال يقول جوابا عن رسالة وصلت إليه: "فجاءت كالحلة يضاحك الشمس إبريزها، ومحاسن الروض تفويفها وتطريزها، بدائع ينحط عن ذروتها البديع، ويقتبس من جذوتها الأشقر الصديع"(١).

هذه النصوص وغيرها في أدب الأندلسيين تشف عن مكانة بديع الزمان في نفوسهم، ومدى تقديرهم لأدبه، فقد ساروا على نهجه، وعارضوه، وفاضلوا بينه وبين غيره من الكتاب، وقلدوا مقاماته، وتأثروا به في كتاباتهم تأثرا واضحا، وهذا ما تكشف عنه الصفحات التالية.

(١) رسائل ابن أبي الخصال: تحقيق: د.محمد رضوان الداية، ص٤١٥، ٤١٦، دار الفكر، سورية، الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م. الأشقر الصديع: يقصد الفجر.

الفصل الأول

معارضة ابن حزم لبديع الزمان

يلجأ الأديب- شاعرا أو ناثرا- إلى نص قديم أو معاصر- شعرا أو نثرا- فيبني عليه عمله شكلا ومضمونا، وهذا ما يطلق عليه المعارضة، وإن كان الشكل أساسا في المعارضات فالمضمون أولى ثم أولى.

إن النص الجديد يستحضر روح العمل الأول بكل أبعاده ومضامينه، كما يستحضر مضرب المثل مورده، فيدور النص الجديد في فلك سابقه: في مناسبته، وبنائه، وموضوعه، بل ومعانيه وصوره وأخيلته، وهذا هو عين المعارضة(٢).

وترجع أهمية المعارضة إلى أنها تربطنا بالتراث، إذا كان النص المعارَض من التراث، وهي تكشف عن روح التواصل الأدبي والفني، فنجد التواصل الدائم والارتباط الوثيق بما يمحو الفجوة ويقرب الشقة بين العصور الأدبية.

(٢) انظر:التيار المشرقي في الأدب الأندلسي ص٣٠. والمعارضة هي "أن ينشئ ناظم أو ناثر نصا على غرار نص آخر بدافع من الدوافع يتفق معه في الموضوع أو الروح والاتجاه ملتزما بالبحر والقافية وحركة الروي إذا كانت المعارضة في الشعر أو مختلفا معه في شيء من ذلك". من حديث المعارضات الأدبية: د.عبد الوارث الحداد ص ١٣، مطبعة السعادة، القاهرة، الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

وبواعث المعارضة كثيرة منها: الإعجاب بالجانب الفني والصياغة الممتازة(١)، وإظهار البراعة والقدرة على التفنن في القول، ورغبة في التحدي والمغالبة، وتشابه المواقف، وغير ذلك(٢).

والمعارضات الشعرية وإن كانت فنا قديما مشرقي النشأة، فإن المعارضات النثرية ظاهرة أندلسية النشأة، وقد شاعت لدى الكتاب الأندلسيين في القرنين الخامس والسادس الهجريين، فكثيرا ما يستثير نص نثري إعجاب مجموعة من الكتاب فينبرون لمعارضته في أسلوب يشف عن قدرة على المحاكاة، ورغبة في التفوق وإثبات الذات، معبرين عن دهشتهم بهذا النص طرافة منحى، وبراعة طرح ومعالجة، ومجسدين رغبتهم في التفوق عليه فنيا(٣).

وقد قرأ الكتاب الأندلسيون رسائل بديع الزمان وعبروا عن دهشتهم بها، ونسجوا على منوالها، وعارضوها، ومن هؤلاء الكتاب الذين عارضوا بديع الزمان في بعض رسائله عبد الوهاب بن حزم(٤)، إذ وجدنا صاحب الذخيرة يسوق لنا رقعة من إنشائه(٥) يعارض بها رسالة لبديع الزمان.

أولا- رسالة بديع الزمان

كتب إليه بعضُ من عُزل عن ولايةِ حُسْنِهِ يستمدُّ وداده، ويستميل فؤاده(٦)؛ فأجابه بديع الزمان بقوله(٧): "وردَتْ رقعَتُك- أطالَ الله بقاءَك- فأَعَرْتُهَا طرفَ التعزُّزِ، ومددتُ إليها يدَ التقزّز، وجمعتُ عنها ذيلَ التحرُّز، فلم تَبْدَ على كَبِدي، ولم تَحْظَ بناظرِي ويَدِي، وخطبتَ من مَودّتي ما لم أجِدْك لها كُفُؤا، وطلبت من

(١) انظر: تاريخ النقائض في الشعر العربي: د.أحمد الشايب ص٧، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الثانية١٩٥٤م.

(٢) انظر:المعارضة في الأدب العربي: د. إبراهيم عوضين ص٣٥ وما بعدها، مطبعة السعادة القاهرة، الأولى١٤٠١هـ- ١٩٨٠م. وانظر: التيار المشرقي في الأدب الأندلسي ص٥٣ وما بعدها.

(٣) انظر: الحوار الأدبي بين المشرق والأندلس، المتنبي والمعري نموذجين: د.أيمن محمد ميدان، ص١٦٧، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠١م.

(٤) الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم، من كبار الكتاب في الأندلس(ت٤٣٨هـ)، وهو ابن عم الإمام الفقيه ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ). انظر في ترجمته: الذخيرة ١٣٢/١/١، المُغرِب في حلى المغرب: ابن سعيد الأندلسي، تحقيق: د. شوقي ضيف،٣٥٧/١، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م. وجذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي، ص٢٩١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨م.

(٥) انظر: الذخيرة ١٤٠/١.

(٦) رسالة بديع الزمان ومعارضتها كلتاهما في غلام أمرد أخذ الشعر ينبت في عذاريه(جانبي لحيته) ففقد بذلك حسْنَه الذي كان يتعزَّز به ويتمنَّع، فأقبل على من كان يصد عنه. ولا يمنع هذا– بل هو سر الجمال وأصل الروعة-أن نفهم الرسالتين على أنهما في من انتقل من عز الولاية إلى ذلِّ العزلِ، فطامنَ من كبريائه، وأقبل يلتمس الود ممن كان عنه معرضا، وله مباعدا، أيا كانت هذه الولاية، وهذا العزل.

(٧) انظر: كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان: إبراهيم الأحدب الطرابلسي، ص٨٤– ٨٩، دار التراث، بيروت١٣٠٧هـ- ١٨٩٠م.

عِشرتي ما لم أرَك لها رِضاً"(١).

استهلال يسيطر عليه الاعتزاز بالنفس، والأنفة، وعدم الرغبة، والغضب الواضح من بديع الزمان على هذا المعَذَّر الذي يكتب إليه، فرقعته لم تحرز عند بديع الزمان القبول، وهو إن تناولها، لا رغبة فيها، وإنما تناولها بيد الامتناع، يظهر ذلك في هذه العبارات: (أعرتُها طرف التعزز، يد التقزز، لم تتد، لم تحظ بناظرِي، لم أجِدْك لها كَفُؤا، لم أرَك لها رضاً). وهي تكشف عن حال الكاتب ومدى نقمته وسخطه على هذا المعذَّر، وصده وإعراضه عنه.

ويسير الكاتب في رسالته مصورا حاله مع صاحبه حين كان يتقرب إليه يوم أن كان نضرا غضا يطلع من محياه البدر، ويسفر من فرقهِ الفجر، فلم يُعنَ لأمره، بل تاه بحسن قده، وزهها بورد خده، وسامه الاحتقار والإهمال، ولما عذَّر، وبَقَلَ وجههُ وأزهرَ، وزالت آية حسنه، وأظلم نور خده، وفقد حسنه الذي كان يتعزَّز به ويتمنَّع عاد إلى بديع الزمان يخطب وده فيقول: "وقلتُ: هذا الذي رفع عنَّا أجفان طَرْفه، وشال بشَعَرَاتِ أنفه، وتَاه بحُسْنِ قَدِّه، وزهَا بوَرْد خَدِّه، ولم يَسْقِنا من نَوْبِه، ولم نَسِرْ بضوئه، والآنَ إذْ نسخ الدهرُ آيةَ حُسْنِه، وأقام مائد غُصْنِه، وفَثَأَ غَرْب عُجبِه، وكفَّ زهْوَ زهْرِه، وانتصر لنا منه بشَعَراتٍ كسفتْ هِلالَه، وأكسفَتْ بالَه، ومسخَتْ جمالَه، وغيّرتْ حالَه، وكدّرَتْ شِرْعتَه، جاء يستقي من جُرفنا جَرْفاً، ويغرِفُ من طِيبِنَا غَرْفاً، فمهلاً يا أبا الفضل مهلاً: (من مجزوء الكامل)

أَرِغبْتَ فينا إذْ عَلاَ
ك الشَعْرُ في خَدّ قَحِلْ؟
وخرجْتَ من حدِّ الظبا
ءِ وصِرْتَ في حدّ الإِبِلْ؟
الآن تطلبُ عِشْرَتي
عُدْ للعداوةِ يا خجِلْ(٢)

ثم راح الكاتب يذكره بعجبه وزهوه، وتنكره له أيام روضه مزهِرا، وزهره ناضرا، فقد عانى من صده وإعراضه فملأ قلبه حرقة، وجوانحه نارا، يقول: "وتناسيتَ أيامَك؛ إذ تكلِّمنا نَزْراً، وتلْحظنا شَزْراً، وتجالسُ مَنْ حضر، ونسترِقُ إليك النظر، ونهتز لكلامك، ونهشُّ لسلامك: (من الطويل)

ومَن لكَ بالعينِ التي كان مُدةً
إليك بها في سالفِ الدَّهْرِ ينْظُرُ؟(٣)

أيام كنت تتمايلُ، والأعضاء تتزايَلُ، وتتغانجُ، والأجساد تتفَالجُ، وتتلفَّتُ، والأكبادُ تتفتتُ، وتخطرُ وترفُلُ، والوَجْدُ يَعْلو بنا ويسفُلُ، وتُدْبرُ وتُقبلُ، فتَمْنِى وتخبُلُ، وتصُدُّ، وتُعْرِض،

(١) التعزز: الاتصاف بالعز وتكلُّفه. وطرف الشيء: جانبه. التقزز: التباعد من الدنس والامتناع عنه. التحرز: الاحتراز من الشيء.

(٢) رفع أجفان الطرف: كناية عن ترفعه. شال بأنفه: شمخ وتكبر. تاه: التيه هو الصلف والتكبر. النوء: المطر. المائد: المائل. فثأ: سكن وكسر وكف عن الشيء. الغرب: الحدة والنشاط. الجرف: الماء الكثير. قحل: يبس.

(٣) البيت لأبي العتاهية؛ (وقد غير فيه بديع الزمان بما يناسب الموقف). ديوانه ص ٢١٥، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م. النظر شزرا: النظر في إعراض.

فتُضنِي وتُمرضُ:(من الطويل)

وتبسِمُ عن ألْمَى كأنَ مُنَوَّراً
تخلّل حَرّ الرَّمْل غَضٌّ له نَدِي(١)

فأَقْصِر الآنَ فإنه سوقٌ كَسَد، ومتاعٌ فَسد، ودولة عَرضت، وأيامٌ انقضت:(من مجزوء المتقارب):

وعَهدُ نَفَاقٍ مَضَى وخَطْبُ كَسَادٍ نَزَلْ
وخدّ كأَنْ لم يكُنْ وخَطّ كأن لم يَزَلْ".

إن زمان نَفاق بضاعة هذا الغلام قد ذهب بعدما عذر، وأيام زهوه قد انقضت، ولم يعد يصلح لطلب مودته ولا لخطبة محبته.

ويستمر الكاتب في تقريع صاحبه وإثبات ما كان عليه من تمويه وخداع، وأنه مهما قام بتغيير شكله وقسمات وجهه بالقص والنتف, فسيبقى وجهه يفصح عن منكره وخداعه، لذا فهو يقطع عليه أي أمل في التقرب والود مرة أخرى، فلم يعد يقبل عليه ولا يشتهيه: "وقد بلغني الآنَ ما أنتَ مُتَعَاطيه من تمويهٍ يجوزُ بعد العِشاءِ في الغَسَقِ، وتشبيهٍ يَفتضِحُ عند ذوي البَصَر؛ وإفنائِكَ لتلك الشَعَراتِ حقّاً وحَصّاً، وأَسْياعِك لها نتفا وقصّاً، وسيكفينا الدهرُ مؤونَةَ الإنكار عليك، بما يزفّ إليك، من بناتِ الشَّعَر وأمهاتِه؛ فأما ما استأذنت رَأيي فيه من الاختلاف إلى مجلسي فما أقَلَّ نشاطي لك؛ وأضيَقَ بِساطي عنك، وأشبَعَ قلبي منك، وأشدَّ استغنائي عن حضورك"(٢).

ويبدو بديع الزمان هنا معتزا بشخصه، عارفا قدر نفسه ومنزلتها، لذا فالغضب الشديد على هذا المعَذّر، وتوبيخه، والحط من شأنه، والرغبة عنه - هذه المعاني كلها- تسيطر عليه حتى نهاية الرسالة، فيقول: "فَانْأَ برَحْلِكَ وجانِبِكَ، مُلقًى حبلكَ على غارِبِك، لا أُوثرُ قُربَكَ، ولا أندهُ سَرْبَكَ، ولو أحببتُ أن أُوجِعَكَ لقلت:

ما يفعل الله باليهودِ ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاهُ
ما يفعل الشَعرُ بالخدودِ"(٣)

إن بديع الزمان قد رغب عن هذا المعذَّر ولا يريد التودد إليه ولا التقرب منه، وحقا قد أوجعه؛ ففعل الله باليهود هو غضبه- تعالى-

---

(١) البيت لطرفة بن العبد؛ ديوانه بشرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال ص٢٦، إدارة الثقافة والفنون، البحرين، الثانية ٢٠٠٠م. تتغانج وتتفالج: تتكلف وتعرض. تخطر وترفل: تتبختر. الخبل: الجنون ونحوه. تضني: الإضناء هو الإمراض. الألمى: أسمر الشفة. تخلل: توسط. حر الرمل: أكرمه وأحسنه. غض: الغض: الناعم والنضر. الندِي: الذي أصابه الندى والمطر.

(٢) الحص: حلق الشعر. والحف: احفاؤه أي نتفه وقصه.أسياعك: الأسياع: جمع سيع وهو المطر الجاري على الأرض وهذا المعنى لا يناسب المقام، ولعلها (إسباغك)أو (إشباعك)أي أنه استقصى شعره بالنتف والقص وهو أقرب. أمهات الشعر: أصوله. وبناته : فروعه، والمراد: أن يعمم الدهر وجهه بالشَّعر. ضيق البساط: كناية عن ضيق صدره بمرآه. أشبع قلبي منك: لم يعد يشتهيه.

(٣) كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان ص٨٩. مُلقى حبلكَ على غارِبِك: يريد اذهب حيث شئت فقد رغبت عنك. لا أنده سربك: السرب: البال والقلب، أي لم يعد يميل إليه.

وضرب المسكنة والذلة عليهم، ومسخهم قردة وخنازير، وأما عاد فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، وأهلك ثمود بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وأغرق فرعون وجنوده، وفعل الشعر بالخدود هو تبديل السواد بالبياض والحسن بالقبح.

لقد استطاع بديع الزمان في رسالته أن يشفي غلته من ذلك الغلام الذي كان يتأبَّى عليه ويتمنع، وقد راح يعبر عن صده عنه، وعدم إقباله عليه، ويكيل له ما استطاع من هجاء وسخرية، وهذا يدل على ما في نفس بديع الزمان من حقد دفين لهذا الغلام المزهوِّ بنور خده، المغرور بدلِّه وحسْنه.

وقد أكدت هذه الرسالة على قدرة بديع الزمان في صوغ المعاني الهجائية، والسخرية اللاذعة، والتهكم الشنيع، والتقريع الموجع، "صادفت من نفسه استعداداً, ومن خفة روحه سنداً, ومن استعداده اللغوي وتمكنه الأسلوبي تفوقاً وبراعة ونضوجا"(١).

ونشعر وكأن بديع الزمان كان ينتظر الفرصة ليعبر عن غضبه من هذا المعَذَّر، إذ نجد الألفاظ تنثال عليه في يسر وسهولة، والمعاني تأتيه طواعية، والصور تتلاحق في نفسه وتتنامى في يسر وسهولة معبرة عن شدة الغضب الذي يكنه الكاتب لهذا الغلام ومن على شاكلته.

(١) بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية: د. مصطفى الشكعة، ص ٢١٨، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

ثانيا - رسالة ابن حزم

وعُرِضتْ على أبي المغيرة ابن حزم رسالةُ بديعِ الزمان في الغلام الذي خطب إليه وُدَّه بعد أن عذَّر، وبَقَلَ وجهُهُ وأزهَرَ، فعارضها برقعة يقول فيها(٢): "ورد كتابُك تَنشُدُ ضالةَ وُدَّنَا, وتَرقَعُ خَلَقَ عهدَنا، وتطلبُ ما أفاتتْهُ جريرتُكَ إلينا, وذهبتْ به جنايتُكَ علينا، أيامَ غُصنُكَ ناضر, وبدرُك زاهر, لا نجد رسولاً إليك غير لحظةٍ تخرِق حجاب الدموع, أو زفرةٍ تُقيمُ مُنآدَ الضُّلُوع، فإن رُمْنا شكوى يَنفُثُ بها مصدورُنا, أو يستريحُ إليها مهجُورُنا, لقينا دونها أمنعَ سدّ, وأفدحَ رَدّ" .

في هذه المقدمة نرى ابن حزم يسير على نهج بديع الزمان في رسالته، فيكشف عن حال هذا المعَذّر, ويبين أحواله أيام زهوه، من تكبره، ومنعه ورده, مفصحاً بذلك عما تكنه نفسه، لكن استهلاله جاء خاليا من العنف الذي سيطر على استهلال بديع الزمان، والشدة التي غلفت ألفاظه ومعانيه، وذلك راجع إلى أن بديع الزمان عاش التجربة وعاينها بنفسه.

ثم يمضي ابن حزم في رسالته معتزا بشخصه، آخذا في التأنيب والتقريع لهذا المعذِّر المغرور بحسنهِ، المزهوِّ بورد خده كما فعل بديع الزمان، فيقول: "وقلتَ: أهذا الطامعُ، في أن يطالعَ القمرَ الطالع, والراغبُ في أن يصاحبَ النجم الثاقب؟, لشد ما زاد، وأبعد ما أراد! حاولَ تألُّف الظبي الشارد,

(٢) انظر: الذخيرة ١/١/١٤٠-١٤٢ .

وهَصْرَ الغصنِ المائد, بدمعةٍ صبَّها، وزفرةٍ شبَّها، أما علم أن لحظي سهمٌ: القلوب أغراضه، وأنِّي ظبيٌ: النفوسُ رياضُه؟ فننصرِفُ عنكَ كما أتينا، ونقف كما جرينا، ونعودُ إلى نار الوجد بك نصلاها، وديار البُعد عنك لا نبرح مَغناها".

ويستطرد الكاتب في رسالته, فيكشف عن ذلة هذا المعَّذر، وخسوف هلاله بعد اكتماله، بعد أن ساءت حاله بنبتِ العذار، فأصبح عاريا من الجمال, مذكرا إياه بما كان منه أيام روضه مزهرا، وزهره ناضرا، ولما عذَّر، وزال عنه ما أزهر، وأظلم نور خديه، وفقد حسنه الذي كان يتعزَّز به ترفعا وتيها، عاد يخطب وده، لكنه لم يلق غير الصد والإعراض، فيقول: "حتى إذا طفِئتْ تلك النيران, وانتصفَ منكَ الزمان بشَعَرات أغشَتْ هلالَك كسوفاً, وقلبتْ ديباجَكَ صوفاً, وأعادتْ نهاركَ ليلاً... أقبلتَ تتْسَلُّ إلينا لِواذا, وتطلب منا عِياذا، قد أنساك ذلُّ الَعْزلِ عِزَّ الولاية, وأولاكَ طمعاً نسياننا تلك الجِناية, أيام ترشُّقُنا سِهامُ ألحاظِكَ رشْقاً, وتقتُلُنا سيوفُ ألفاظِكَ عِشقاً, وتمِيسُ غصْنًا, فتُثيرُ حزْنًا, وتطلُعُ شمسًا, فتُغيِّبُ نفْسًا، خدودُنا أرضُ نِعالِكَ، وصُدُورُنا حدٌّ مجالِكَ، ونفوسُنا مِهاد خِبّك، وقلوبُنا ميْدانُ حربك، فالآن نلقاكَ بدمعٍ قد جفَّ، ووَجْدٍ قد كفَّ، وعزاءٍ قد أُيِّد، وصبرٍ قد غارَ وأنجدَ، وهوًى قد أراحَ رواحله، وأطاع عاذله، وسُلُوٍّ قد قَرَّبَ ركائبَه وأسعد طالبَه".

ثم يشرع الكاتب في بيان أثر إعراض هذا المعذَّر وصده عنه، وآثاره السيئة في نفسه فيقول: "ونسيت من أحرقتَ قلبَهُ صداً، وأقلعتَ خِلْبهُ ردّاً, وملأتَ جوانِحَهُ ناراً, وتركتَ نومَهُ غرارًا: أن يُوَفَّيَكَ قرْضًا, ويُجازيَكَ حتى ترضى, حين نُكِسَ علمُك, وعَثَرَتْ قدمُك... فاطوِ ثوبَ وصْلكَ، فلا حاجة لنا إلى لباسِهِ، وازْوِ طارِقَ شخصِكَ فلا رغبةَ لنا في إيناسه، فما نشتهي اليومَ زيارَة رمْسٍ من زَهِدَ فينا أمسِ، (من البسيط):

حانتْ منيتُهُ فاسوَدَّ عارضُه

كما تُسَوَّدُ بعد الميت الدار(١)

وكما ختم بديع الزمان رسالته بختام شعري يختم ابن حزم رسالته أيضا بالشعر الذي يؤكد فيه على رغبته عن هذا المعَذَّر وزهده فيه، وقد جعل اسوداد عارضه - بنبات الشعر في عذاريه- إيذانا بالموت، وكان ذلك دأب الشعراء، "فإذا تقوّى العذارُ واسودَّ صاروا إلى نعيه"(٢).

إن المتأمل في الرسالتين يجد أن ابن حزم يسير على درب بديع الزمان، ويتبع طريقته في شدة الهجاء والتقريع، والتوبيخ والتأنيب، والغلو في السخرية، وتزيين الرسالة بالشعر الذي يوافق المعنى، ويحقق الغرض، ويتمم

---

(١) الذخيرة ١١٧/١/١ . والبيت لعلي بن بسام البغدادي. ديوانه، تحقيق: مزهر السوداني، ص٣٧، مؤسسة المواهب للطباعة، بيروت، الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

(٢) شرح مقامات الحريري لأبي العباس الشريشي: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ٤١١/١، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

الصورة، وفي هذا تأكيد على مقدرة ابن حزم الأدبية في معارضة بديع الزمان والسير على طريقته.

ثالثا- رؤية نقدية

وفق الكاتبان في رسالتيهما، وقد استطاعا أن يعرضا تجربتهما في قالب فني يشد المتلقي وتسيطر عليه الحيوية والحركة والإثارة، وفي هذه السطور نحاول أن نقف معهما وقفة متأنية مرة أخرى نستبين بعض ملامحهما الفنية.

١- البناء النفسي والفكري

سجل بديع الزمان في رسالته ما تنطوي عليه نفسه من غضب وغيظ من ذلك المعَذَّر الذي تنكر له، وأعرض عنه، وسامه الاحتقار والصغار، ونحاول التأمل فيها لنقف على العوامل النفسية والفكرية التي بنيت عليها، وكونتها، وكانت سببا في كتابتها.

أ- **الشعور بالذات.**

وهذا واضح في رسالة بديع الزمان، فهو كاتب متميز يعرف قدر نفسه الأدبية، وفيه ترفع وأنفة، يعتز بنفسه وأدبه ويعرف عبقريته المتوقدة وذكاءه النادر، "ومن هنا كان كثير اللوم لمن يحس منه تصغيرا لشأنه، أو تحقيرا لشخصه، يوجه اللوم إليه رقيقا حينا، وعنيفا أحيانا، وقد يصحب العتاب باللوم والتقريع، أو التعنيف والتوبيخ"(١) ، ودليل ذلك ما نقرأه في رسائله من عتابه للأمراء والرؤساء في التفريط في جنبه، أو إنزاله دون منزلته.

كتب مخاطبا بعض الرؤساء: "أنا- أطالَ الله بقاءَ الشيخ- ... وإن لم ألقَ تطاوُلَ الإخوان إلا بالتطوّلِ، وتحامُلَ الأحرارِ إلا بالتحمّلِ، أحاسب الشيخَ - أيده الله- على أخلاقِهِ، ضنًّا بما عقدتُّ يدِي عليهِ من الظنِّ به، والتقدير في مذْهبِهِ، ولولا ذلك لقلتُ في الأرض مجال وإن ضاقتْ ظلالُكَ، وفي الناس واصلٌ وإن رثَّتْ حبالُك"(٢).

وكتب إلى بعضهم يعلمه بقدره ومكانته: "كتابي- أطال الله بقاءك- وقد كنتُ نذرتُ ألا أخاطبَ حضرتَهُ، ثم روَى لي القاضي حديثاً طرقَ إلى نقضِ ما نذرتُ طريقا... وإنّي لاستحِي من الله أن أرى لِيَ المثَلَ الأدنى، وفي القوْسِ مِنْزعُ أنا"(٣).

وفي مستهل الرسالة التي معنا نجده يعتز بشخصه ويثأر لكرامته، فلما وصلته رسالة هذا المعَذَّر تنكر لها وأهملها، إكراما لنفسه، واعتزازا بشخصه. يقول مخاطبا له: "وردت رقعتكَ... فأَعَرْتُهَا طرف التعزُّز، ومددتُ إليها يدَ التقزّز، وجمعتُ عنها ذيلَ التحرز، فلم تندَ على كبدي، ولم تحظَ بناظري ويدي، وخطبتَ من مودتي ما لم أجدْكَ لها كفؤا، وطلبت من عشرتي ما لم أركَ لها رضًا"(٤).

---

(١) بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية: ص١٩٩.

(٢) كشف المعاني والبيان ص ١٠٠، ١٠١ .

(٣) السابق ص ٢٦٦. يريد بالقوس مكانه من المجد والشرف والرفعة والمنزلة. وانظر أيضا- ص١٢، ١٤٢ ،١٤٥- ١٤٩، ١٥٧- ١٦١. وغيرها.

(٤) السابق: ص ٨٤.

إن المتأمل في هذا الاستهلال يجد ترفع بديع الزمان عن مخاطبة مثل هذا المعذّر الذي تنكر له في ولاية حسْنِهِ، وأعرض عنه أيام زهوه، فهو شخصية متفردة، يشعر بذاته، ويعرف قدر نفسه، لذا فقد أهمل رسالته، ولم يعنَ لها، ولم يكن ذلك الغلام المعذّر - مع ولايته - كفؤا له، فقد ضاق صدره بمرآه ولم يعد يشتهيه، أو يود النظر إليه، يؤكد ذلك قوله: "فأما ما استأذنتَ رَأيي فيه من الاختلافِ إلى مجلسي فما أقَلَّ نشاطي لك؛ وأضْيَقَ بساطي عنكَ، وأشبَعَ قلبي منكَ، وأشدّ استغنائي عن حضورِكَ"(١).

وفي جل مقاماته نجده يفخر على لسان بطل مقاماته أبي الفتح الإسكندري بأدبه وعلمه وتميزه، ويشيد ببلاغته وفصاحته(٢).

ب- تذكير الغلام المعذّر بماضيه العزيز وأيامه الخوالي.

وقد بدا ذلك واضحا في غير موضع من رسالة بديع الزمان: "وقلتُ: هذا الذي رفع عنَّا أجفان طَرْفه، وشالَ بشَعَرَاتِ أنفه، وتَاهَ بحُسْنِ قَدِّه، وزهَا بوَرْد خَدِّه، ولم يَسْقِنا من نَوْئِه، ولم نَسِرْ بضوئِه، فالآنَ إذْ نسخَ الدهرُ آيةَ حُسْنِهِ، وأقامَ مائدَ غُصْنِهِ...جاءَ يستقي من جُرفِنا جَرْفاً، ويغرِفُ من طِيبِنَا غَرْفاً"

فالصد والإعراض قائم من الغلام المعذّر أيام ولايته، يوم أن كانت أغصانه ناضرة، وأزهاره زاهرة، والأيام مقبلة عليه، ولما اسود عارضه، ونبت الشعر في عذاريه، ففقد بذلك حسنه الذي كان يتعزز به ويتمنع أقبل يلتمس الود ممن كان عنه معرضا، وله مباعدا، وتذكر صحبة بديع الزمان.

وفي موضع آخر يقول مذكرا إياه بما كان منه نحوه من صد وإعراض: "وتَناسيتَ أيامَ_ك؛ إذ تكلِّمنا نَزْراً، وتلْحظنا شَزْراً، وتجالسُ مَنْ حضر، ونسترقُ إليك النظر، ونهتزُّ لكلامِكَ، ونهشُّ لسلامِك... وتصدُّ وتُعْرِض... فأَقْصِر الآنَ فإنه سوقٌ كَسَد، ومتاعٌ فَسد، ودولةٌ عَرضتْ، وأيام انقضتْ".

ويسير ابن حزم على نهج بديع الزمان أيضا، فيذكر ذلك المعذّر بأيام زهوه وعزه، حين كان مفتونا بحسنه: "أيامَ غُصنُكَ ناضِر، وبدْرُكَ زاهر، لا نجدُ رسولا إليكَ، غير لحظةٍ تخْرِقُ حجابَ الدموع، أو زفْرَةٍ تُقِيمُ مُنآدَ الضُلوع، فإن رُمْنا شكوى يَنفُثُ بها مصدورُنا, أو يستريحُ إليها مهجُورُنا, لقينا دونها أمنعَ سدّ, وأفدحَ رَدّ" .

وفي موضع آخر يقول:"أيام ترشُقُنا سِهامُ ألحاظِكَ رشْقاً, وتقتُلُنا سيوفُ ألفاظِك عِشقاً, وتمِيسُ غصْنا, فتُثيرُ حزْنَا, وتطلُعُ شمسًا, فتُغيّبُ نفْسًا، خدودُنا أرضُ نِعالِكَ، وصُدُورُنا حدٌّ مجالِكَ، ونفوسُنا مِهاد خِبّكَ، وقلوبُنا ميْدانُ حربكَ، فالآن نلقاكَ بدمعٍ قد جفَّ، ووَجْدٍ قد كفَّ".

---

(١) السابق: ص ٨٧.

(٢) انظر: مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني: شرح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المقامة القريضية ص١١، السجستانية ص٢٠، الجاحظية ص٥٨، الحمدانية ص١٤١، الشعرية ص٢٦٣، وغيرها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٢م.

ج- الغضُّ من شأن الغلام المعذّرِ وهجاؤه.

وقد بدا ذلك واضحا في جميع أجزاء الرسالة، من مثل قوله: "فأما ما استأذنتَ رَأيي فيه من الاختلاف إلى مجلسي فما أقَلَّ نشاطي لك؛ وأضيَقَ بِساطي عنك، وأشبَعَ قلبي منك، وأشدَّ استغنائي عن حضورِكَ، فإن حضرتَ فأنت كغاشٍّ، نرُوضُ عليهِ الحِلْمَ، ونتعلمُ به الصبرَ، ونتكلَّفُ فيهِ الاحتمالَ، ونُغْضِي منهُ الجَفْنَ على قَذًى، ونطوي منه الصدرَ على أَذًى، ونجعَلهُ للعُيونِ تأديبا، وللقُلوبِ تأنيبا"، وعلى هذا النحو من السخرية والهجاء يمضي الكاتب في رسالته حتى نهايتها.

وقد سار على نهجه ابن حزم في شدة التقريع والتوبيخ، والهجاء واللوم، والسخرية، لكن حرارة الانفعال، وعمق الإحساس بالتجربة، وصدقها، وشدتها، وثبات العاطفة الغاضبة واضح بيّن في رسالة بديع الزمان، ذلك لأنه عاش التجربة، ولقي من ذلك الذي كان يتعزز بحسنه ويتمنع ما لقي، لذا جاء نفَسُه أطول من نَفَسِ ابن حزم فجاءت رسالته طويلة لتستوعب هذا كله.

أما ابن حزم فلم يعش ذلك الجو النفسي المؤلم، ولم يجرب بنفسه هذا الصد والإعراض والتنكر الشديد على النفس، هو فقط يعارض لمجرد المعارضة، وإعجابه برسالة بديع الزمان، وإظهار قدرته الإبداعية وبراعته الأدبية في الكتابة، وقد وفق إلى حد كبير، فجاءت رسالته على قدر كبير من الهدوء والرفق في الهجاء.

ومع هذا فالغلو في السخرية والإيغال في الهجاء واضح في رسالة ابن حزم، وهو يؤكد أنه ينهج نهج بديع الزمان في رسالته، وتظهر براعته في اختيار ألفاظه وقوتها، ودقة تعابيره ودلالتها على المعاني.

وقد استطاع ابن حزم أن يحذو حذو بديع الزمان، وأن ينقل معانيه وصوره في رسالته، غير أنه "صاغها في أسلوب أقرب إلى الحضارة، وأدنى إلى الرقة، وأبعد عن حرارة العنف التي عرف بها بديع الزمان، وليس من شك في أن السبب في هذه المفارقة الوحيدة بين الرسالتين ترجع إلى طبيعة كلا الكاتبين، فبديع الزمان كتب رسالته في ظل غضارة العمر لأنه لم يعمَّر أكثر من أربعين حولا، ومن الناحية الأخرى فإن بديع الزمان فيه طبيعة الأديب، أما ابن حزم فكانت فيه سجية العالم، وفيما عدا ذلك فالمعاني واحدة، والمسلك واحد، وليس هناك من خلاف إلا ما فرضته طبيعة كل من الأديبين والبيئة التي ينتسب إليها كل منهما"(١).

وأضيف إلى ذلك ما ذكرته- وهو أمر مهم- أن بديع الزمان قد عاش التجربة، وآلمه وقعها على نفسه، فجاءت رسالته بهذه القوة من شدة الحرارة، وقوة الانفعال، وصدق التجربة، أما ابن حزم فلم يعش ذلك الجو النفسي المؤلم، ولم يحْيَ هذه التجربة بنفسه، لذا جاءت رسالته أقل حرارة وانفعالا وحيوية من بديع الزمان.

---

(١)الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه:ص٥٨٨.

٢- البناء الفني.

أما من ناحية بناء الرسالة فنيا، فنحاول أن نقف مع الرسالتين في بعض النقاط والظواهر الفنية البارزة فيهما:

أ- البدء.

مفتتح الرسالة هي أول ما يطالعه المرسل إليه، وهي لبنة الأساس الأولى التي تبنى عليها، ولذا يلزم أن تكون من احتفال الكاتب بالقدر الذي يتناسب ودورها في تحريك خاطر المتلقي إلى الوجهة التي يريدها عمله الكتابي. فمتى كان الابتداء حسناً شدّ انتباه المتلقي، وكان أدعى إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام.

وقد وردت رسالة بديع الزمان في صورة رد وجواب؛ والجواب يدل على وقوف الكاتب على كتاب ورد إليه وقرأه وعرف ما فيه فراح يرد عليه، ونجد هنا أن بديع الزمان دخل في موضوعه مباشرة دون تقديم أو تمهيد، كما تبعه في ذلك- أيضا- ابن حزم.

وفي تقديري أن الذي دفع الكاتب إلى الدخول في الموضوع مباشرة دون تقديم أو تمهيد، هو ما تنطوي عليه نفسه من فوران الصدر، وجيشان الفؤاد، وقوة الشعور، وغلبة الإحساس بعزة النفس، وشدة الحنق نحو ذلك الغلام الذي تنكر له وأعرض عنه، وتمنع، هذا كله غلب على الكاتب فلم يدع أمامه مهلة ليقدّم بين يدي غرضه، فعبر عما في نفسه مباشرة دون تقديم أو استهلال!.

وكذلك فعل ابن حزم كما فعل بديع الزمان لأنه يعارضه، فالحالة النفسية المسيطرة على الكاتب وقت الكتابة لها أثرها الواضح في موضوع الرسالة، إذ الأمر لا يحتمل التقديم ولا التمهيد.

ب- توشيحُ الرسالة بالشعر.

برزت ظاهرة استرفاد الشعر في النثر بروزا واضحا في العصر العباسي في الرسائل الأدبية، والمقامات، والخطب، وكان جُل كتّاب هذا العصر يجمعون بين الشعر والنثر، فقد أدركوا قيمة الشعر وما يملكه من طاقات إيحائية، ودلالات وظلال فنية تثير في نفس المتلقي التأمل والدهشة والإمتاع، فوشحوا به رسائلهم، وحرصوا على توظيفه توظيفا فنيا يثري الرسالة ويشد من أزرها، ويعضد أفكارها حتى تنحو نحو الكمال الفني، وتقع من المتلقي موقع القبول والتأثير فتحقق الإقناع والإمتاع.

والمتأمل في رسالة بديع الزمان يجد أنه استعان بالشعر في رسالته ووظفه توظيفا فنيا يغنيها ويثريها، ويشد من أزرها، فالشاهد الشعري الأول في رسالة بديع الزمان وهو قوله: (من مجزوء الكامل)

أَرِغبْتَ فينا إذْ عَلاَ
ك الشَعْرُ في خَدّ قَحِلْ؟
وخرجْتَ من حدِّ الظبا
ءِ وصِرْتَ في حدّ الإِبِلْ؟
الآن تطلبُ عِشْرَتي
عُدْ للعداوةِ يا خجِلْ

يكشف لنا حال بديع الزمان مع ذلك الغلام الأمرد الذي كان يتعزَّز بحسْنِه ويتمنع، ولما نبت شعر عذاره، وغربت شمس خديه، وانتقل من عز الولاية إلى ذلِّ العَزْلِ،

وصار عاريا من الجمال، فطامن من كبريائه، أقبل على بديع الزمان يخطب مودته، ويطلب عشرته، والشعر يتعاون مع النثر في تأكيد المعنى، وترسيخ الفكرة، وتصوير هذا الموقف الذي أوغر صدر الكاتب، وزاد من حدته وغضبه على هذا الغلام المغرور.

والشاهد الشعري الثاني الذي استرفده بديع الزمان وهو قوله (من الطويل):

ومَن لكَ بالعينِ التي كان مدةً
إليك بها في سالفِ الدَّهْرِ ينْظُرُ؟

جاء متمما للمعنى، مؤكدا عليه، مكملا للصورة، فهو يذكره بعجبه، وزهوه بحسنه، وتمنعه وإعراضه عنه أيام كان نضرًا غضًّا، البدر محياه، ونور الفجر في عارضيه، ولكن تغيرت تلك العين التي كان يراه بها جميلا، فكأن النص الشعري هنا أتي بما في نفس الكاتب، وأتم ما كان يعتلج في صدره، فأثرى المعنى، وأحكم الصورة.

أما الشاهد الثالث وهو قوله:(من الطويل)

وتبسِمُ عن ألْمَي كأنَ مُنَوَّراً
تخلّل حَرّ الرَّمْل غضٌّ له نَدِىّ

يرسم– أيضا- حال صاحبه وهو في عز الولاية مذكرا إياه بماضيه العزيز، وأيامه الخالية، يوم أن كان أمردا، غضًّا نضِرًا، فيكشف عن حاله معه، وما كان منه نحوه من صد وإعراض، وتمنع وتعزز، وتمايل وتزايل. فالمعاني متلاحقة متتابعة، والأفكار متحدة متماسكة، والصورة واضحة محكمة، لا تنافر فيها، ولا فجوة بين عناصرها.

وأخيرا يذهب الكاتب في رسم المشهد الأخير من رسالته فيصور حال صاحبه وهو يتذلل إليه متوسلا، طالبا مودته، لكن الكاتب يأبى إلا الصد والهجر، وتذكيره بما أسلفت يداه، وما رآه من صاحبه من صد وإعراض، وتمنع وازدراء، فقد انقضت أيام زهوه، وأظلم نهار خديه، ولم يعد يصلح لطلب مودته ولا لخطبة محبته: "فأَقْصِر الآنَ فإنه سُوقٌ كَسَد، ومتاعٌ فَسد، ودولةٌ عرضت، وأيامٌ انقضتْ: (من مجزوء المتقارب):

وعهد نَفَاق مَضَى وخَطْبُ كسادٍ نَزلْ
وخدّ كأَنْ لم يكُنْ وخَطّ كأن لم يَزَلْ"

تناسق تام بين النثر والشعر، واتحاد واضح بينهما، إنهما يمتزجان معا وكأنهما شيء واحد للتعبير عن هذه الحال وتصوير هذا الموقف، والشعر كفيل بالتعبير عما يدور في نفس الكاتب، ويترجم ما بها من شعور وخلجات، وهو يحمل معاني كثيرة تكشف عما في نفسه من غيظ وحقد، وتسعفه في التعبير عن غرضه، وجاء متمما للمعنى، موضحا للصورة كاشفا عن غرض الكاتب، ناهيك عن أثره في إيقاظ المتلقي وشد انتباهه، ودفع السأم عنه، وهو خير شاهد على براعة الكاتب وتفوقه.

هذا التلاحم بين الصناعتين يكشف لنا عن تلاحق المعاني والصور في نفس الكاتب، وقد كشفت لنا هذه الرسالة عن قدرة بديع الزمان في السخرية والهجاء من صاحبه، وتقريعه المؤلم، وهجائه اللاذع الذي يشف عن ما تمتلئ به نفس بديع الزمان من

غيظ وحقد نحو هذا الغلام المغرور، وقد استطاع أن يصوغ ما تنطوي عليه نفسه في معان معبرة، وصور بارعة مؤثرة.

وقد سار خلفه ابن حزم معارضا وموشحا رسالته أيضا بالشعر الذي يتوافق مع موضوع الرسالة ويتمم معناها، لكنه لم يستشهد إلا ببيتين في صلب الرسالة وبيت في خاتمتها، وهذا يؤكد براعة بديع الزمان وفضله على ابن حزم.

فالشاهد الشعري الأول في رسالة ابن حزم وهو: (من المتقارب)

وبتَّ مُدَامًا تَسُرُّ النَّزِيفَا
فأصبحت تُجْرَعُ خلا ثَقِيفًا
وصِرتَ حِجَازًا جديبَ المَحَلِ
وقد كنتَ للطالبِ الخصبِ رِيفًا

يكشف عن ذلة هذا الغلام، وخسوف هلاله بعد اكتماله، وانتقاله من عز الولاية إلى ذل العزل, فقد أظلم فجر خده، وفقد آية حسنه، وهو يسخر من صاحبه ويزري به، ويحط من شأنه، ويهوي بمكانته وقيمته، ويفي بغرض الكاتب في استيفاء المعنى وإيجازه وتكثيفه، والتعبير عن مراده، وإن كان هذا الشعر أقل حدة وعنفا وانفعالا من شعر بديع الزمان.

والبيت الأخير في ختام الرسالة يلخص القصة ويوجزها في كلمات معدودات، وقد جعل اسوداد عارضه- بنبات الشعر في عذاريه- إيذانا بالموت:

حانت منيتُه فاسوَدَّ عارضُه
كما تُسَوَّدُ بعد الميت الدار.

إن توشيح النثر بالشعر يضفي عليه جمالا، ويَهَبُه جلالا، إذ يمتزج مع النثر ويتعانق معه في تأدية المعنى المراد وإبرازه وتوضيحه، وهو من سمات المجيدين من الكتاب. يقول ابن عبد الغفور الكلاعي: "وكان المجيدُ كثيرًا ما يُضمِّنُ في رسائِلَهُ أشعارَهُ، وأشعار غيره"(١).

ج – الترابط والتواؤم

إن قارئ رسالة بديع الزمان يجد تواؤما وتناسبا بين أفكارها ومعانيها، وترابطا واضحا بين أجزائها، إذ يلفها رابط واحد يهيمن عليها من أولها إلى آخرها وهو الحنق والغضب، والشدة واللوم على من كان غصنه ناضرا، وبدْره زاهرا، والأيام مقبلة عليه بوجهها، ثم فقد هذا كله بعد أن عذَّر، وبقلَ وجههُ وأزهرَ، فأقبل يلتمس الود ممن كان عنه معرضا، وله مباعدا، وهذا هو ما دفع الكاتب إلى كتابة رسالته، يعضده ويذكيه غضب مسيطر عليه يثور في قلبه، ونفس متأففة نحو من هذه حاله وصفته.

إنني أجد تعبير الكاتب عن غضبه من هذا الغلام، يتبعه تذكير له بأيامه الخوالي، وماضيه العزيز، يتبع ذلك الهجاء المقذع والسخرية اللاذعة، والتهكم الشنيع، والتقريع الموجع، وإثبات لما كان عليه من تمويه وخداع، وتوبيخه والحط من قدره حتى نهاية الرسالة.

---

(١) إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس: ابن عبد الغفور الكلاعي، تحقيق:د. محمد رضوان الداية، ص٦٩ ،٧١، عالم الكتب، بيروت، الثانية١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

فنجد أن الأفكار والمعاني والجو العام في الرسالة متماسك مترابط، يشمله غضب شديد مسيطر على نفس الكاتب، ويذكيه تجربة ذاتية -هي تجربة بديع الزمان- كانت سببا في كتابة هذه الرسالة التي جعلت كاتبا قديرا كابن حزم ينشئ رسالة معارضا لها، فينسج على منوالها، مؤكدا بذلك على جودتها وحسنها وقدرة كاتبها على استيفاء المعاني وتوليدها، وإتمام الصورة وإحكامها، حتى حققت للمتلقي الإمتاع والإقناع.

كما اتسمت رسالة بديع الزمان بالتواؤم العام، والتآلف الشامل مع الجو النفسي الذي يعيشه الكاتب ويحياه، وما سيطر عليه من غضب شديد تجاه هذا الغلام، هذا الجو النفسي الذي يحياه الكاتب عند كتابة رسالته يلف الرسالة من أولها إلى آخرها، وقد سيطر عليه حتى نهايتها، لذا جاءت الرسالة بكل معانيها وأفكارها متوائمة مع ذلك الجو النفسي الذي يعيشه الكاتب، ملتحمة به، مفضية في النهاية إلى تعانق الأفكار مع المعاني، وتآزر الشكل مع المضمون، معبرة عن إحساس الكاتب النفسي، والسمو بالتجربة إلى أعلى درجاتها الفنية.

د- صدق العاطفة وثباتها

العاطفة هي الانفعال والإحساس بالموقف الذي يعالجه الكاتب، والحالة النفسية المسيطرة عليه ويفوح أريجها في كل تعبير، أو معنى، أو صورة تجاه الموضوع الذي يسعى للتعبير عنه.

وهي "عنصر مهم في الأدب، بل هي أهم عنصر فيه، وهي التي تطبع الأدب بطابعه الفني"(١). وأهم مقاييسها أن تكون صادقة غير مفتعلة، والصدق هنا مقصود به الصدق الفني، ويتحقق لها ذلك عندما "تنبعث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع، حتى تكون عميقة تهب للأدب قيمةً خالدة"(٢).

وقد تحقق لرسالة بديع الزمان صدق العاطفة، وقوتها وثباتها، فجاءت صادقة معبرة، قد ملكت على الكاتب قلبه وروحه، وسيطرت عليه، بدا ذلك جليا في كل أجزاء الرسالة حتى نهايتها، حيث نجد فوران الفؤاد، وحرارة الانفعال بالموقف، وقوة الشعور تنطق في كل أجزاء الرسالة.

والدليل على صدقها وقوتها: إحساس المتلقي بمشاعر الغيظ والغضب والحنق التي تملكت الكاتب وسيطرت عليه وقت تسجيل تجربته، "وقوة العاطفة إنما تتضح بمقدار انفعال المتلقي وتأثيرها في نفسه، فإذا حرك النص عواطف القارئ وأثار مشاعره كان صادق العاطفة قوي الشعور، فالأديب لكي يثير شعور القارئ أو السامع يجب أن يكون هو قوي الشعور في أدبه"(٣).

أما ابن حزم فهو يعارض بديع الزمان وهو- كما ذكرت- لم يعش ذلك الجو النفسي

---

(١) أصول النقد الأدبي:أحمد الشايب، ص٣١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، العاشرة١٩٩٤م.

(٢) السابق ص ١٩٠ .

(٣) في النقد الأدبي: د.عبد العزيز عتيق ص١١٢، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢م بتصرف.

المؤلم، ولم يحيَ هذه التجربة الأليمة بنفسه، لذا جاءت رسالته أقل حرارة وانفعالا وحيوية من رسالة بديع الزمان.

هـ - الختام

بعد ما ينتهي الكاتب من رسالته يصل إلى الخاتمة، فهي آخر ما يبقى في نفسه، وعلى الكاتب أن يتخلص إليها تخلصا ريّضا لا يفاجئ القارئ به، وأن يجيد فيها قدر استطاعته، وقد أشار ابن عبد الغفور إلى ذلك في قوله: "وكذلك يجب أن يُستجاد آخر الرسالة ويُتْقن؛ حتى يكون قُفْلاً لمحاسنها، كما أنّ أولها مفتاح لذلك"(١).

وختام الرسالتين هنا جاء ختاما شعريا، والكاتب إنما يستعين بالشعر ويبثه في رسالته لإثبات مقدرته الشعرية، وفي هذا ما يضفى على نثره القوة والأصالة، والقيمة الفنية، ويؤدي إلى إقناع القارئ وإمتاعه، فالإقناع عن طريق النثر، لأن "النثر في الأصل لغة العقل، يقرر قضاياه، ويسجل نتائجه" (٢)، والإمتاع عن طريق الشعر، "والشعر لغة العاطفة - غالبا- يصورها ويثيرها"(٣).

يقول بديع الزمان في ختام رسالته مخاطبا صاحبه: "فَانْأَ برَحْلكِ وجانبكَ، مُلقًى حَبْلكَ على غارِبكَ، لا أُوثِر قُرْبكَ، ولا أَنْدَهُ سِرْبكَ، ولو أحببت أن أوجعكَ لقلتُ:

ما يفعل الله باليهود ولا بعاد ولا ثمود

ولا بفرعون إذ عصاه

ما يفعل الشَعر بالخدود"

ليؤكد أن الشعر مسيطر عليه حتى نهاية الرسالة يلجأ إليه ليتمم المعنى، ويؤكد الفكرة ويرسخها في ذهن المتلقي، وقد أحسن في اختيار هذا الشعر وأظهر براعته في وضعه في هذا الموضع من رسالته ليدعم موقفه، ويفي بغرضه من ورائه، ويلخص القصة، ويوجز القضية في كلمات معدودات.

ويقول ابن حزم في ختام رسالته: "فاطوِ ثوبَ وصلكَ، فلا حاجة لنا إلى لباسِهِ، وازْوِ طارِقَ شخصِكَ فلا رغبةَ لنا في إيناسه، فما نشتهي اليومَ زيارَة رمْسٍ من زَهِدَ فينا أمسِ:

حانت منيتُه فاسوَدَّ عارضُه

كما تُسَوَّدُ بعد الميت الدار

وهو ختام يلخص القضية، وقد أحسن الكاتب اقتباسه من شعر علي بن بسام البغدادي من أبيات قالها في أخيه جعفر(٤)، وكان في صباه من أهل الجمال الفائق، وقد جعل "اسوداد عارضه" بنبات الشعر في عذاريه- إيذانا بالموت- "كما تُسَوَّدُ بعد الميت الدار".

وهو مما يتصل بمضمون الرسالة، ويفي بغرضها ويتمم معناها، وهو تصريح بغرض الكاتب، وتأكيد على فكرته، وترجمة واضحة لغايته من رسالته، وكاشف عما يعتمل في نفسه، وتذكير للمخاطب بمضمون الرسالة وغرضها قبل أن يختمها، فإذا أحسن الكاتب توظيفه وقعت رسالته موقعا حسنا من نفس

(١) إحكام صنعة الكلام:ص ٢٤٣ .
(٢) أصول النقد الأدبي: ص٩٠ .
(٣) السابق : ص ٩٠ .
(٤) انظر: ديوان علي بن بسام البغدادي، ص٣٧ .

القارئ، وحققت الإمتاع الفني، ولا عجب في ذلك: "فالخاتمة في كل شيء هي العمدة في محاسنه، والغاية في كماله"(١).

وقد أحسن الكاتبان وأجادا باختيارهما لهذا الختام الذي يلامس عين المقصود، ويفي بالغرض المطلوب، ويجسد المعنى المراد، ويثبت الفكرة ويرسخها في ذهن المتلقي وقلبه.

إن المعارضة التي تقوم أولا على الإعجاب بالنص المعَارض لا تخلو –غالبا- من مشاعر التحدي لدى الكاتب المعارِض "لأنه ينشئ وهو يعلم أن أول ما يقرأ الناس كتابه سيقرنونه بالأصل الذي قلده، ويزنونه به وهذه حال تحفز بعض الكتاب إلى التحليق والسمو، ولكنها قد تضر بآخرين ممن هم ذوو تهيج وانفعال متطرف"(٢).

وقد بدت براعة ابن حزم جد واضحة في معارضته لبديع الزمان ونسجه على منواله: في نعومة صياغته، ولطافة الإيقاع الموسيقي، والاعتماد الكلي على الصورة، وهو يدل على إعجابه بهذا الكاتب المتميز، ومع ذلك يبقى الفضل للمتقدم وهو بديع الزمان ومعجزة همذان، فقد ذلل السبل لأبي المغيرة وكفاه مؤونة البحث عن المعاني، وهيكلة النص وترتيب مضامينه، لذا فهو متفرغ للصياغة يزخرف شكلها وينمنم وشيها(٣).

فالتأثر واضح بيّن في رسالة ابن حزم، فقد تبع بديع الزمان، وسار على نهجه في الموضوع وترتيب الأفكار بل في كيفية الصياغة، وهذا -كما ذكرنا- لا يبخس حق ابن حزم ولا يغض من قدره، فإن كان قد عارض بديع الزمان، فقد أثبت قدرة أدبية واضحة في معارضة كاتب مجيد من كتاب المشرق وهو بديع الزمان الهمذاني.

وممن عارض رسائل بديع الزمان أيضا الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الأندلسي في رسالة وشحها بقصيدة، "عارض البديع بها في بابه، وصب فيها على قالبه"(٤). وقد أورد ابن بسام الشعر ولم يثبت شيئا من النثر(٥).

وعارض بديع الزمان أيضا الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن شماخ برسالة موشحةٍ سار فيها على طريقته وضربها على قالب سبيكته(٦). ولم يذكر ابن بسام منها إلا أبياتا شعرية ختم بها الكاتب رسالته.

---

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ١٠٤/٣، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

(٢) النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري مضامينه وأشكاله: د.علي بن محمد ٥٣٩/٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الأولى ١٩٩٠م.

(٣) انظر: السابق : ٥٤٢/٢ .

(٤) الذخيرة: ٦٩٦/٢/٢ .

(٥) السابق: الصفحة ذاتها.

(٦) انظر: السابق: ٨٤٠/٢/٢ .

ونجد أثر رسالة بديع الزمان السابقة واضحا في نص لابن خفاجة يقول فيه مخاطبا بعضهم: "أما بعد أيها النبيلُ النبيهُ، فإنه لا يجتمع العذَارُ والتِيهُ، كان ذلك وغصنُ الشَّبيبةِ رطْبٌ، ومَنهلُ ذلك المقبَّلِ عذْبٌ، وأمَّا والعِذارُ قد بقَلَ، والزمانُ قد انتقلَ، والصَّبُّ قد صحَا فعقلَ، فقد رَكَدَتْ رياحُ الأشواقِ، ورَقَدتْ عُيونُ العُشّاقِ، فدع عنك من نظرةِ التجنّي، ومِشْيةِ التثنّي، وَغُضَّ مِن عِنَانِكَ، وخذْ في ترضِّي إخوانِك، وهشَّ عند اللقاءِ هشَّة أرْيَحِيَّةٍ، واقنعْ بالإيماءِ رجْعَ تحَيّةٍ، فكأني بفنائكَ مهجورا، وبزائرِك مأجورا"(١).

إن المتأمل في مضمون رسالة ابن خفاجة يتأكد عنده أنه قد قرأ رسالة بديع الزمان وتأثر بها، يؤكد ذلك هذه الكلمات والعبارات: (العذار والتيه، وغصن الشبيبة رطب، العذار، الصب، التثني) والتي وردت في رسالة بديع الزمان، "ولكنه توجه توجها جديدا بالموضوع فليس بينه وبين من يخاطبه من خصومة أو عداء، ولم يصوره منكسر الخاطر متقربا، بل صوره مغالطا لنفسه متتايها، ومن ثم وجه إليه سهام نقده في صورة نصائح لاذعة، وهذا كله وإن أعطى نص ابن خفاجة بعض الخصوصية فإنه يدور في فلك بديع الزمان"(٢).

رابعا- رسائل بديع الزمان وكتابات أندلسية أخرى

كما يظهر أثر رسائل بديع الزمان واضحا في بعض كتابات الأندلسيين، غير ابن حزم، ومن هؤلاء الكتاب:

أ- ابن زيدون

من الرسائل التي يظهر فيها أثر بديع الزمان ورسائله واضحا ما كتبه ابن زيدون في رسالة له يقول فيها: "ونظرتُ إلى ما دون ذلك من أسبابِ البعدِ المانعةِ، وامتدادِ البلاد المعترضةِ، فغضضتُ طرفَ الخيبةِ، وطويتُ كشْحا على اليأس من دَرَكِ الأمنيةِ، إلى أن ندبني الأديب أبو فلان إلى مخاطبته، وحرَّضَنِي على مكاتبته... فطربتُ إلى ذلك كما طربَ النشوانُ مالتْ به الخمرُ، واهتززتُ له كما اهتزَّ تحتَ البارحِ الغصْنُ الرَّطْبُ، ورأيتُ من شكرِ يدِ العلياء فيما حثَّني إليهِ، وحضَّني عليهِ، مما فيه حليةُ الفخر، ومَكْرُمَةُ الدهرِ، أن أستفتحَ بابَ المكاتبة بالشفاعةِ، وأنهجَ طريقَ المخاطبةِ في العنايةِ به، وبيننا - بعْدُ - من ذمامِ الطلبِ، وحرمة الوُد والأدب، ما أستقصِرُ نفسِي معهُ، أن أتقدمَ في خدمةِ رغبتهِ بقلمي، وقد تأخرتْ قدمي، ويُعَدُّ لاقتصارِ غيبته كتابي، دون أنْ أزُمَّ لذلك ركابي"(٣).

فقول ابن زيدون: "فطربت إلى ذلك ... الغصن الرطب" هو من قول بديع الزمان في

---

(١) الذخيرة ٦٤٧/٢/٣، وديوان ابن خفاجة: تحقيق: د. سيد غازي، ص١٢٩، منشاة المعارف، الإسكندرية، الثانية ١٩٧٩م.

(٢) التيار المشرقي في الأدب الأندلسي ص ١٨٧.

(٣) الذخيرة: ٣٩٨/١/١، وديوان ابن زيدون ورسائله: تحقيق: علي عبد العظيم ص٧٥٧، دار نهضة مصر، القاهرة١٩٨٠م.

رسالته إلى أبي بكر الخوارزمي: "أنا لقُرْب الأستاذ أطال اللهُ بقاءه، كما طَرِب النّشْوَانُ مالَتْ به الخمرُ، ومن الارتياح للقائه، كما انتفض العُصفور بلّله القَطْرُ، ومن الامتزاج بولائه، كما التقَت الصَهباءُ والبارِدُ العَذْبُ، ومن الابتهاج لمَزَاره، كما اهتزّ تحت البارح الغُصُنُ الرَطْبُ"(١).

ونهاية كلامه من قول بديع الزمان في رسالة له يقول فيها: "يعز عليّ – أطال الله بقاء الشيخ الرئيس- أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي، ويسعد برؤيته رسولي، دون وصولي، ويرد شرع الأنس كتابي قبل ركابي"(٢).

وهذا النص يجزم بقراءة ابن زيدون رسائل بديع الزمان قراءة واعية، والأخذ منها، ويؤكد على تمجيده وتقديره لأدب بديع الزمان، ونظرته لأدب المشرق نظرة تقدير وتوقير، فالبناء على مثاله هو النهاية، والنسج على منواله هو الغاية.

ب- كتاب القرن السادس الهجري

كما نجد أثر بديع الزمان واضحا في كتابات الأندلسيين بعد القرن الرابع الهجري، فقد تطور النثر الأندلسي ودخل مرحلة الصناعة والزخرفة اللفظية من سجع وجناس وطباق وغيرها، من ألوان البديع التي عرفت في النثر الفني، وشاعت عند كتاب القرن الرابع الهجري ومنْ بعدَهم، وظهر ذلك جليا في كتب التراجم، كالذخيرة لابن بسام، وقلائد العقيان، ومطمح الأنفس لابن خاقان، فهذه الكتب تعتبر مثالا حيا لهذا النثر الحافل بمظاهر التوشية والبديع(٣).

وقد أشار ابن شهيد إلى شيء من هذا التطور فقال: " ثم دار الزمانُ فاعترَى أهله باللطائفِ صَلَفٌ، وبرقَّةِ الكلامِ كَلَفٌ، فكانت إحالةٌ أخرى إلى طريقةِ البديعِ، وشمسِ المعالي، وأصحابهما"(٤).

لقد صارت طريقة بديع الزمان في الكتابة مثلا يحتذى في المشرق والأندلس منذ القرن الرابع الهجري، وقد وقع كتاب الأندلس أسرى لهذه الطريقة واحتفوا بها، والتزموا بها في كتاباتهم، كابن أبي الخصال، وابن مغاور الشاطبي، وابن عميرة المخزومي، وغيرهم.

فابن أبي الخصال(٥) وهو من الكتاب الذين تأثروا بطريقة بديع الزمان في الكتابة، يقرر في إحدى رسائله اتباعه طريقة بديع الزمان، يقول: "وهلْ نفسُ التكلف إلا ما دَفع البديعُ إليه، وتَبِعناهُ – مَعْشَر الضُّعفاءِ- عليهِ، حين عدلنا عن المنهجِ، ودخلنا تحتَ

(١) كشف المعاني والبيان: ص ١٢٨. الصهباء: الخمر المعصورة من العنب.
(٢) السابق: ص ١٠٣ .

(٣) انظر: أبو المُطرِّف أحمد بن عَميرة المخزومي، حياته وآثاره: د. محمد بن شريفة ص ١٨٠، ١٨١، ٢٢٠، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ١٣٨٥هـ- ١٩٦٦م.
(٤) الذخيرة: ٢٣٧/١/١ .
(٥) الوزير الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي، عني بالحديث، وكان متقدما في الآداب، عالما بالأخبار، توفي مقتولا ٥٤٠هـ. انظر: قلائد العقيان: ٥١٨/١. الذخيرة: ٢/٣/ ٧٨٤، والمغرب: ٦٦/٢ .

الحرجِ، ولو شاء الله بنا يسْرًا، لوضعَ عنا من هذهِ المشقَّةِ إصْرًا"(١).

وهي شهادة صريحة باتباعه مذهب بديع الزمان في الكتابة، وإن كان يرى في هذا المذهب تكلفا ومشقة، ولكننا مع ذلك نراه منقادا في أسلوب عصره، غارقا فيما يهاجمه، تمشيا مع الذوق السائد في عصره.

وابن مغاور الشاطبي(٢)، كان يميل إلى طريقة بديع الزمان في الكتابة ويتبع أسلوبه، وينهج نهجه في الكتابة، وقد تأثر به في عدد من رسائله، بل وجدناه يقتبس بعض فقر من رسائله ناسبا لها حينا، وساكتا عن ذلك حينا آخر، بما يؤكد أنه كان متشبعا بنثره(٣).

جاء في بعض رسائل ابن مغاور في التعزية قوله: "ولو كان الجزعُ- أعزكم الله- يردّ فائتا، والأسفُ ينشرُ من جدثهِ ميتًا، لسالتْ العيونُ نجيعًا، وجرتْ القلوبُ مع الدموعِ دموعا، لكنَّ الموتَ - كما قال شيخنا بديع الزمان-: خَشُنَ حتى لانَ"(٤).

فابن مغاور يصرح أنه يأخذ من بديع الزمان، بل ويجعله شيخه في الكتابة، وقوله: "لكن الموت...خشن حتى لان" من قول بديع الزمان في رسالة له في التعزيه، يقول: "وعضَضْتُ الإصبَعَ حتى أفنيتهُ، وذممتُ الموتَ حتى تمنَّيْتهُ، والموتُ خطْبٌ قد عظُمَ حتى هانَ، وأمرٌ قد خشُنَ حتى لان"(٥).

ومن اقتباسات ابن مغاور من رسائل بديع الزمان- أيضا- قوله: "تحققنا ذلك ممن حلَّ قطرنا منهم خبرا، وعاينا هذا عيْنا، في بعضهم وفي غيرهم أثرا، ومن عاينَ من السيفِ أثرَهُ فقد عاينَ أكثرَهُ"(٦).

فالفقرة الأخيرة هي من قول بديع الزمان في إحدى رسائله: "أنا في مُفاتحةِ الأميرِ بينَ ثقةٍ تَعِدُ، ويدٍ تَرْتَعِدُ، ولم لا يكون ذلك، والبحرُ وإن لم أرَهُ فقد سمعتُ خبرَهُ، ومن رأى من السيفِ أثرَهُ فقد رَأَى أكثرَهُ"(٧).

وهو تتبع واضح من ابن مغاور لرسائل بديع الزمان، تؤكد معرفته بها، وتأثره بطريقتها، والاقتباس منها في رسائله.

إن هذه النصوص النثرية تؤكد على مكانة بديع الزمان، وتكشف عن قدرته الإبداعية لدى كتاب الأندلس، وصدى رسائله في كتاباتهم، وهذا يكشف لنا عن تتبعهم لكتابات المشرق ومدى عنايتهم بآثاره.

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٥٣.

(٢) أبو بكر بن مغاور الشاطبي، من مشيخة الكتاب وجلة الأدباء المشاهير بالأندلس، كان بليغا مفوها، وله حظ وافر من قرض الشعر، وكان فقيها، ت ٥٨٧هـ . انظر في ترجمته: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار، ص٢٥٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨م. المغرب: ٣٨٥/٢ .

(٣) انظر: ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره: دراسة وتحقيق: د. محمد بن شريفة ص٨٢، ١٠١، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، الأولى١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

(٤) السابق: ص ٢٥٠ .

(٥) كشف العاني والبيان عن رسائل بديع الزمان ص ٢١٤.

(٦) ابن مغاور الشاطبي ص ٨٣ .

(٧) كشف العاني والبيان: ص٢٣٨ .

الفصل الثاني
مفاضلة بين بديع الزمان
وأبي إسحاق الصابي

لم يقف تأثر الكتاب الأندلسيين ببديع الزمان عند حد المعارضة كما فعل ابن حزم، أو اقتباس من رسائله كما سبق، وإنما تعدى ذلك إلى المفاضلة والمقارنة، فثمة كاتب أندلسي وهو الأديب أبو محمد عبد الله بن القاسم الفهري(١) فاضل(٢) بين بديع الزمان وأبي إسحاق الصابي(٣) في رسالة جوابا على سؤال وجه إليه في الترجيح بين هذين الكاتبين وأيهما يقدم على الآخر.

وقد قرأ هذه الرسالة الكاتب عبد الله بن أبي الخصال وراح يفندها ويصدر رأيه في بديع الزمان وأبي إسحاق في رسالة طويلة.

أولا- رسالة ابن القاسم الفهري

يقول ابن القاسم مستهلا رسالته(٤): "البديعُ والصّابِي- أعزكَ اللهُ- فيما يتجاذَبانهِ من أهدابِ البيانِ فرسَا رَهَان، جَرَيا منه إلى مدى فأدركاه، وتناولاه من عفوٍ فملكاه، هذا يَبْلُغُ شأوه عَفْوًا، وذاك يجْهدُ إليهِ عدْوًا، وكلاهُما يغْرِفُ من بحرٍ، ويقذِفُ في نحْرٍ، فالبديعُ إذا رفعَ أبدعَ، والصابي إذا صابَ أصابَ، بيد أن البديعَ إذا وصفَ رصَفَ، والصابي إذا رامَ مَرَامَه دلف في خطوِهِ إليه ورَسَفَ، وشتَّانِ بين الكلامِ المطبوعِ والمنمَّقِ المصنوعِ".

يرى الكاتب أن بديع الزمان والصابي في الكتابة أشبه بفرسين كريمين اختيرا لرهان فحاز كلاهما قصب السبق فيه، لكنه يرى أن أحدهما وصل إلى هدفه دون مشقة أو تعب، والآخر أجهد نفسه وشق عليها حتى وصل إلى غايته، ونال بغيته، وكلاهما يصيب غرضه ويصل إلى هدفه في يسر وسهولة.

ثم يرى أن أسلوب بديع الزمان سهل لا تكلف فيه ولا تصنع، فهو يصدر عن طبع بينما يعتمد الصابئ في أسلوبه على الحلى البديعية والزخرفة اللفظية، والبون شاسع بين الأسلوب المطبوع والمتكلف المصنوع.

---

(١) من كتاب القرن الخامس الهجري، كان أميرا على حصن البونت من أعمال بلنسية، لقب بجماح الدولة، وقد بقي على إمارته حتى سنة ٤٨٥هـ، رحل إلى مدينة سلا بالمغرب وعاش بها بقية حياته، ولم تذكر المصادر تاريخ وفاته. انظر في ترجمته: قلائد العقيان ٣٧٧/١. المُغرِب في حلى المغرب: ٣٩٦/٢.

(٢) عالج هذه المفاضلة ودرسها محمد الهدلق في مقالة بعنوان: خلاف بين أديبين أندلسيين في المفاضلة بين أبي إسحاق الصابي وبديع الزمان الهمذاني، مجلة علامات في النقد الأدبي: المجلد (٥)، الجزء(٢٠)، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية.

(٣) إبراهيم بن هلال بن هارون الصابي، كان كاتبا شاعرا، ولي ديوان الإنشاء ببغداد، ت٣٨٤هـ. انظر في ترجمته: يتيمة الدهر ٢٨٧/٢. معجم الأدباء :١٣٠/١. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تحقيق: د.إحسان عباس٥٢/١، دار الثقافة، بيروت، لبنان١٩٧٢م.

(٤) انظر: رسائل ومقامات أندلسية، تحقيق: د.فوزي سعد عيسى، ص١٩٦، ١٩٧، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٩م.

ثم يصدر الكاتب رأيه في هذين الكاتبين فيقول: "وإنَّ أحقّهما عندي بالتقديم، وأحذقَهما بفَرْي الأديم، من سلمتْ مباني كلامه من التكلفِ، وكرُمَتْ معاني نظامه عن التعجرف".

إن المقدم في رأيه هو المطبوع، السهل، البعيد عن التكلف والوعورة والتنميق والتصنيع، لذا قدم بديع الزمان على أبي إسحاق: "والأعدلُ في الحكمِ عن الإقرارِ بالفضلِ، لأبي الفضلِ، في سماحةِ الطبعِ، ورجاحةِ الوضعِ، ولأبي إسحاق في قوةِ أسر الكلام، وشدةِ النزْعِ، وإنهما ليرميانِ معا إلى غرضِ الإحسانِ، وكلاهما في إصابة المرمى البعيد منه سيَّان، غير أنّ البديعَ أعرقُ نَزْعًا وأفصح، والصابيّ أوسعُ باعا في ميدانِ الإسهابِ وأفسح".

لقد حكم الكاتب بتقديم بديع الزمان، لسماحة طبعه، وفصاحة عبارته، وسهولة أسلوبه، وأخَّر الصابئ لجزالة لفظة، ومتانة عبارته، وقوة أسلوبه، مع أن كليهما من القوة بمكان مرتفع في إصابة الهدف، وتحقيق الغرض، لكن يبقى البديع هو الأفصح ذو البيان المحكم، بينما الصابي أقدر على الإسهاب والإطناب والإطالة.

وفي ختام الرسالة يؤكد الكاتب على أنهما فارسا الحلبة في فن الكتابة، وهما المقدمان في هذا الميدان، وهذا ما انتهى إليه في الحكم على هذين الكاتبين، وحكمه هذا صادر من نفسه دون تأثر بأحكام سابقة على كلا الكاتبين أو أحدهما: "لا جرمَ أنهما فارِسا الحلْبةِ بالإجماع، وإمامَا القومِ في حُسْنِ الاختراعِ، فإليهما منتهى الحد، وعليهما تُثْنَى الخناصِرُ في العدِّ، إن شاء الله، والآن قد أفضى بنا القولُ في المفاضلة بين البديع والصابي إلى ما أثبتناه ووفينا كلا حقه من الوصف، فلم نُنزِه منه شيئا ولا ألتناه، ولم أستدل فيما ذكرتُه بهوادة، ولا تزيّدتُ عليه بمزوّر شهادة، والسلام".

إن هذه الرسالة تفضي في النهاية إلى تقديم بديع الزمان على الصابي في فن الكتابة، والواضح أنه قد أصدر حكمه في هوادة وتؤدة دون هوى أو تحيز.

ثانيا- رسالة ابن أبي الخصال

وقد أثارت هذه الرسالة ثائرة أحد الكتاب الأندلسيين وهو عبد الله بن أبي الخصال، فراح يفندها، ويصدر رأيه في بديع الزمان وأبي إسحاق في رسالة طويلة(١).

وقد استهلها بما يؤكد أن الحكومة أمر صعب، فالتصدي للحكم بين أديبين أو الموازنة بينهما أمر يفتقر إلى التأني والروية، ثم أشار إلى أن القدماء كانوا يتحاشونه وينفرون منه قدر استطاعتهم، يقول: "الحكومةُ أعزكَ الله- ما علمت صعبٌ مرتقَاها، بعيد ملتقاها، وقديما تجنبها الحزماء، وحاد عنها الحكماء، وقد كان أهلُ الجاهلية... يَهابُون كل المهَابةِ مواطنَها"·

(١) انظر: رسائل ابن أبي الخصال، ص ١٣٩-١٥٦. ورسائل ومقامات أندلسية، ص١٩٨، وقد اعتمدت على نص رسائل ابن أبي الخصال.

ثم راح يشيد برسالة ابن القاسم مبينا أثرها في أنصار الصابي، فقد ملأت قلوبهم غيظا وصدورهم حنقا، وخلفت آثارا سيئة عليهم، يقول: "ووقفتُ لكَ منذُ أيام على نفثاتٍ غُرٍّ، وكلامٍ بين الصابي والبديع حرٍّ، عالٍ تناولَهُ خاطرُكَ من عُلو، ووقعتْ طيرُ القلوبِ منهُ على ثمرٍ حُلو، لكنَّك – والله يغفرُ لكَ - جرَّعْتَ الصابي منهُ صابًا، وملأْتَ صدورَ شِيَعِهِ أوْصابا، فهُمْ بين جُموعٍ مُنفضّةٍ، ودموعٍ مُرْفضَّة، ونواظرَ كليلةٍ، وخواطرَ فليلةٍ(١).

وهذا الكلام يوحي بأن الأندلس تنظر إلى كتَّاب المشرق وآثارهم نظرة تقدير وتوقير، وتتابع الحركة الأدبية والنقدية بتأنٍّ وتأمُّلٍ شديدين، حتى صار لبعض كتاب المشرق أنصار من كتاب الأندلس يتبعون مذهبه ويدافعون عنه، فللصابي أنصاره، وكذا يفهم أن لبديع الزمان أيضا أنصارا يتبعون مذهبه وينهجون نهجه في الكتابة، وهذا يؤكد في النهاية على مكانتهما وأثرهما في النثر الأندلسي.

ثم يعود الكاتب مرة أخرى ليؤكد على صعوبة الموازنة والحكم بين الناس، ويصدر رأيه من البداية منتصرا للصابي على بديع الزمان وخطئه في جمعه بينهما لأنه لا وجه للموزانة بينهما "فالقضاء جدٌّ عسير، والخطبُ - وإن اجتهدتَ - غيرُ يسير، وإذا اسْتقادك هواك فلا تَهِم، وإذا نظرتَ بعينِ رضاكَ فاتّهِمْ؛ فالموازنة كالمبارزة إنما تكون بالوفاء ومقارعة الأكفاء بالأكفاء... وأبو الفضل وإن كان كما سُمّي بديعا، ولأخْلافِ البلاغةِ رضيعا، لا يُقاس بأبي إسحاق رأسًا، ولا يجعَلُ له سلما ولا بأسًا، لأنهما وإن جمعهما أصلُ اللسانِ، ومزاولةُ الإحسان، كالثُّريَّا وسُهَيل لا يلتقيان، ولا يشْتبِهانِ فيما ينْتقيان"(٢).

ثم راح ابن أبي الخصال يسوق الحجج التي اتكأ عليها في تفضيل الصابي على بديع الزمان، فله قدرة في جذب المتلقين والتأثير فيهم، تنقاد المعاني له في يسر وسهولة، يقول: "أبو إسحاق معينُ القولِ... كتُبه تُغْني عن الكتائبِ...وكيف تُجَارَى أقلامٌ أرضَعتْ الخلافة الهاشمية بلبَانها، وأوتْ إلى ربوةٍ ذات قرارٍ ومعين من بيانها، ونطقتْ فأفحمتْ الناطقين بلسانها؟!"٠

ويرى الصابي قد تفنن في شتى موضوعات وأغراض الكتابة من تعزية وعتاب، ومدح وهجاء وغيرها من الموضوعات والأغراض، فهو "إن عزَّى سلَّى، أو عاتَبَ سرَّى وجلَّى، وأمرَّ وأَحْلى، أو مدَحَ توَّجَ وحلَّى، أو قدحَ أخلقَ وأبْلَى، أو غرَّ سوَّل

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٤٣ . الأوصاب: جمع وصب وهو الوجع والمرض. مرفضّة: أرفض الدمع ارفضاضا: سال وتفرق وتتابع سيلانه. لسان العرب(رفض). فليلة:الفلُّ: تثلم في السيف، أي مكسورة. كليلة: حسيرة خاسئة.

(٢) السابق: ص ١٤٣، ١٤٤. تهم: هام: تحير واضطرب.

وأمْلى، لا جرمَ إنَّ له القلم الأعلى"(١).

كما برع الصابي في نظم الشعر المنمق المهذب: "فأما نظْمُهُ فالأَرْيُ المَشُور، والفُستقُ المقْشُور"(٢). وهو يجري على نهج العرب وسنَنهم في الكتابة والشعر: "وهو -بعد- على مَهْيَع العرب، وأُسلوبها الأبعد الأقرب، لا يُحْرَمُ توفيقَها، ولا يخرمُ على حالٍ طريقَها".

أما البديع فقد تنكب هذه السبل ونأى عنها وابتعد، وجاء بما لم يُعْهد: "ولذلك نرى أبا الفضل قد تحاماهُ على اعتراضِه، وأخذَ في غير أَغْراضه، ولشيءٍ حادَ عن تَقَيُّلِهِ، فأصاب ما شاءَ من تَخَيُّلِهِ، وأجاد في تخلُّصِهِ وتحيّلِهِ، وآثر معهُ الدَّعَةَ والقَرار، وخلَّى الطريقَ لمن يُبني به المَنار"، فلا مجال إذا للمقارنة والمفاضلة بينه وبين الصابي لأن ذلك أمر عسير، على المتهيئ له غير يسير: "فما بالك أعزك الله تقرنه بالصعب، وتحارب به وقد أتي السَّلم ظَفَرا عالي الكعب"(٣).

ثم يجنح ابن أبي الخصال إلى الحديث عن أسلوب بديع الزمان وطريقته في الكتابة ويشيد بقدرته الأدبية، غير أنه لا يرضى بالموازنة بين الصابي والبديع لان البديع ليس كفؤا للصابي، فهو إذا يرفض الموازنة من البداية لكنه لا ينكر قدرة البديع الأدبية، يقول: "أما إنَّ لأبي الفضل فضْلا يُرْعَى، وهو بعد أبي إسحاق مَرعى، ويُدْعَى إثْره أوّلَ مَنْ يُدْعَى، من رجلٍ لطيفِ الحيلة، مُشَخِّصٌ للأوهامِ المُستحيلة، إن أصاب فُرصَةً قتَل، وإن أخطأَها ختلَ، ومسحَ بالذُّروةِ والغاربِ وفتل، ضيَّق من الكلام ما توسَّع، ورقَّعَ الكُوى بالمَحاجر ورصَّعَ، وشعَّبَ وفرَّعَ، واخترعَ من تلكَ الأخاليق ما اخترعَ، فأحسنَ وتمَّمَ، وأدرك من تلك الغاية ما يمَّمَ"(٤).

إن ابن أبي الخصال يرى مقامات بديع الزمان التي تفوق فيها وبرع، وذاع صيتها في الآفاق، يراها حيلا وأخاليق مخترعة، ويصفها بالتخيل والتحيل والأوهام المستحيلة، ونفهم من هذه الأوصاف أنه يستهين بفن المقامة وينزله في منزلة أدنى من منزلة الرسالة فهي من قبيل الهزل، ولا مجال في الموازنة بين الجد - يعني نثر الصابي- والهزْل يعني مقامات البديع: "وأنا لا أعدلُ الهزلَ بالفصْلِ، ولا الخَيْزُرانة بالنصلِ، ولا أرغبُ عن الهدى، ولا أضعُ السيفَ موضع الندى"(٥).

وابن أبي الخصال إن كان يرفض المفاضلة بين الهمذاني والصابي لان الهمذاني ليس كفؤا للصابي، يرى أن الأولى أن تقوم المفاضلة بين كاتب يبلغ شأو الصابي كالصاحب، كما فعل ذلك الثعالبي

(١) السابق: ص ١٤٦ .

(٢) السابق: ص ١٤٧ . الأري: العسل. المشور: من شار العسل استخرجه من الخلية.

(٣) السابق: ص١٤٧ .

(٤) السابق: ص ١٤٩ ، ١٥٠ .الذروة والغارب: فلانٌ يفتل في الذُّرْوَة والغارب: يستخدم الحيلة للوصُول إلى ما يريد. الكوى: جمع كوة وهي الثلمة أو الثقب في الحائط ونحوه.

(٥) السابق: ص ١٥١ .

في يتيمة الدهر(١)، فالموازنة حينئذ متوافقة لأن فنهما - كما يزعم ابن أبي الخصال - واحد وهو الكتابة، يقول: "وما سمعتُ - ولا إخالني أسأتُ سمعًا - بينهما لأحدٍ المتقدمين جمْعا، وقد ذكر الثعالبيُّ أبو منصور:... أنَّ المماثلة على المَسلك اللاحبِ، إنما وقعتْ بينهُ وبين الصاحب، وأنَّ الجَهابذةَ في ذلك أفاضوا، وجالوا بينهما وخاضوا، فهنالك رُمِي طوْدٌ بطوْدٍ، وزُوحِمَ عَوْدٌ بعَوْدٍ".

ثم يشيد ابن أبي الخصال بطريقة الآمدي في الموازنة بين أبي تمام والبحترى، ويضع هذه الطريقة في الموازنة منهجا وسبيلا يهتدى به من أراد(٢).

ثم يعود الكاتب فينسب التكلف إلى بديع الزمان ومن تبعه من الكتاب، وينفيه عن الصابي، فيقول: "وكيف يتعسَّف أو يتكلّف من يدعو الحِكَمَ فلا تتخلّف، وتنقادُ له البلاغةُ طوعًا وتتألّف، وتتصدى إليه البِدَعُ فيأخذُ منها ما يشاءُ ويدع، وهل نفسُ التكلف إلا ما دَفعَ البديعُ إليه، وتبِعنَاهُ - مَعْشَر الضعفاءِ - عليه، حين عدلنا عن المنهجِ، ودخلنا تحت الحَرَجِ، ولو شاء الله بنا يسرًا، لوضعَ عنا من هذهِ المشقة إصرًا"(٣).

ويذكر الكاتب أنه لو وُقِّت لبلغاء الكتاب يوم معين، ونصب لهم حوض يردونه على قدر إحسانهم لكان الصابي أول الواردين، ومنع عنه بديع الزمان ومن تبعه من الكتاب: "أجل، لو وُقِّتَ للبلغاءِ يومُ لا يعْدُونه، ونُصِبَ لهم حوضٌ على قدر الإحسان يَرِدُونَه لوَرَدَ أبو إسحاق أوَّل واردٍ، وأخَذَتْنا مع البديعِ عِصِيُّ الذَّوائدِ، وضربَ صاحبُ الحوضِ بيننا سورا، وقال: (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا)، ليس بكلامكم من البلاغةِ طِرق، ولا نبضَ لكم في الأعراب عِرق"(٤).

وهو بهذا يشير إلى طريقة الهمذاني في الكتابة وعنايته بالمحسنات البديعية والزخرفة اللفظية، وهي - في رأيه - طريقة فيها تكلف يبعده عن الطبع وفيها خروج على المألوف المعروف عند العرب.

ويعيب ابن أبي الخصال على ابن القاسم فخرَه بلقب بديع الزمان، وازدراءَه لقبَ الصابي، ويرى أنه لا وجود له في أصول نسبه ولا فروعه، بل هو منقصة لبديع الزمان وليس فخرا له: "وأما فخرُكَ له باللقب الذي لا يُسَوَّغهُ الشَّرعَ، ولا يحملهُ الأصلُ ولا الفرعُ، فهو إلى أن يكون غِلَّ إسَارٍ، أقربُ منه إلى أن يكون طَوْقَ نُضَار"(٥). فليس لهذا اللقب من الفضل شيء، بل هو إلى الذم أقرب.

وفي نهاية الرسالة يؤكد الكاتب على تقديم الصابي فيقول: "وليس على أبي الفضلِ في كمالهِ نقص، لأنه إلا يكنْ صاحبَ رِضوان،

---

(١) يتيمة الدهر: ٢٩٢/٢ .
(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٥١ .
(٣) السابق : ص ١٥٣ .
(٤) السابق : ص ١٥٤ . الطِرق (بكسر الطاء): القوة.
(٥) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٥٤ .

فهو تابعٌ بإحسان"(١)، وكأنه يجعل بديع الزمان تاليا في الفضل والمكانة للصابي فينزله منزلة الصحابي، والبديع منزلة التابعي. ثم يختم رسالته بما يؤكد أنه وإن خالف ابن أبي القاسم فإنه من أصفيائه ومحبيه، وإن الذي دعاه لتسطير هذه الرسالة إنما هو إثبات الحق لأهله.

ثالثا- رؤية نقدية

المتأمل في رسالة ابن القاسم يجد أنه لم يسرف في حكمه على كلا الكاتبين وأنه حكم بما رآه فيهما وقد جاء حكمه – إلى حد كبير - يوافق ما قرأناه وما سطره القدماء - في القديم والحديث - عن بديع الزمان وأبي هلال.

١- الطبع والتكلف

أول ما يلفت نظرنا في رسالة ابن القاسم حديثه عن الكلام المطبوع والمصنوع"، ويظهر ذلك في قوله: "فالبديعُ إذا رفعَ أبدعَ، والصابي إذا صابَ أصابَ، بيد أنَّ البديعَ إذا وصفَ رصَفَ، والصابي إذا رامَ مَرَامَه دلفَ في خطوِهِ إليه ورسَفَ، وشتَّانِ بين الكلامِ المطبوعِ والمنمَّقِ المصنوعِ".

فالمقدم عنده هو المطبوع، السهل، البعيد عن التكلف والوعورة والتنميق والتصنيع، لذا قدم بديع الزمان على أبي إسحاق: "والأعدلُ في الحكمِ عن الإقرارِ بالفضلِ، لأبي الفضلِ، في سماحةِ الطبعِ، ورجاحةِ الوضعِ، ولأبي إسحاق في قوةِ أسر الكلام، وشدةِ النزْعِ".

(١) السابق: ص ١٥٥ .

فهو يصف أسلوب الصابي بقوة الأسر والسبك والتكلف، بينما أسلوب بديع الزمان سهل يسير، والواقع أننا نقرأ ما قاله النقاد عن الصابي وبديع الزمان في هذا المجال- أعني الطبع والتكلف- فنجد الأمر يفتقر إلى وقفة متأنية لنصل بعدها إلى حكم عادل.

يقول أبو حيان التوحيدي في حديثه عن الصابي: "أحبُّ الناسِ للطريقةِ المستقيمةِ، وأمضاهُم على المحجَّةِ الوسطى"(٢).

ويقول الثعالبي عنه: "أوحد العراق في البلاغة، ومن به تثنى الخناصر في الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية، من البارعة والصناعة"(٣).

ويقول الكلاعي عن القسم الثاني من أقسام الترسيل الذي وسمه بـ (الحالي) "لأنه حلِّي بحسن العبارة، ولطف الإشارة، وبدائع التمثيل والاستعارة، يقول: "فممن جرى في هذا الباب ملءَ عنانه، وحاز قصب السبق في ميدانه، إبراهيم بن هلال"(٤).

ثم ذكر النوع الثالث وهو الذي سماه (المصنوع)، "لأنه نمق بالتصنيع، ووشح بأنواع البديع، وحلِّي بكثرة الفواصل والأسجاع"، وشتى أنواع البديع، ثم ذكر أن من أصحاب هذا النوع بديع الزمان الهمذاني

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي: صححه وضبطه وحققه: أحمد أمين وأحمد الزين، ٦٧/١، س الذخائر (٨٣)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٢م.

(٣) يتيمة الدهر: ٢٨٧/٢ .

(٤) إحكام صنعة الكلام: ص١٠٥ .

وغيره(١)، فهو يرى أن الصابي أقل صنعة وتكلفا من بديع الزمان.

فالقدماء يقرون بسهولة أسلوب الصابي وبعده عن التكلف، بل ويؤكدون على ذلك، والمتأمل في رسائله يستطيع أن يتلمس هذه السهولة البعيدة عن التكلف.

أما بديع الزمان فاحتفاله بالزخارف اللفظية واضح جلي، لا يحتاج لتأكيد أو إثبات، وهذا مالا يخطئه قارئ مقاماته ورسائله، وقد جعل الكلاعي بديع الزمان من أصحاب الترسيل الذي سماه(المصنوع) لأنه نُمق بالتصنيع، ووُشِّحَ بأنواع البديع، وحلِّيَ بكثرة الفواصل والأسجاع.

ويقول شوقي ضيف عن رسائله: "ومن يتصفح هذه الرسائل يحس فيها أثر الاحتفال والجهد الشديد"(٢). ويقول عن مقاماته: "وإنه ليسرف في تجميل كل مقامة بأوسع طاقة ممكنة من الزخرف والزينة والتنميق"(٣).

ويقول مصطفى الشكعة: "فإذا ما انتقلنا إلى الأسلوب اللفظي وجدنا بديع الزمان كلفا بالمحسنات البديعية كل الكلف مفتونا بها كل الفتنة... فأما السجع فإن بديع الزمان ممعن فيه كل الإمعان، موغل فيه كل الإيغال، مفرط كل الإفراط"(٤). ويقول: "وأما من ناحية البيان والبديع اللفظي فالمقامات شأنها شأن الرسائل مليئة بالاستعارات، والجناس، والتلاعب بالألفاظ"(٥).

فأسلوب بديع الزمان في كتاباته يعتمد الزخرفة اللفظية والمحسنات البديعية، فنحن نخالف ما قاله ابن القاسم في هذه النقطة، ونرى أنه لم يوفق في الحكم علي الصابئ بتكلفه مع اعترافنا باعتداله في حكمه في جل الرسالة.

ولعل الذي دعاه إلى إصدار ذلك الحكم، أن كثيرا من الموضوعات التي كتب فيها الصابي موضوعات ديوانية تخص شئون الدولة، مثل تصريف الجيوش، وكتابة العهود، والحض على الطاعة، وغير ذلك من الموضوعات الجادة التي تتطلب وقارا وأسلوبا رصينا يحكمه العقل ولا تسيره العاطفة، وقد أثر هذه العمل الديواني في كتابات الصابي الإخوانية، فكثير ممن كتب إليهم وتبادل معهم تلك الرسائل من كبار رجال الدولة، وقد اقتضت منزلتهم أن يتحدث معهم بوقار ورصانة، إذ يغلب العقل على كتاباته.

أما بديع الزمان فكان حرا من هذا كله، فلم يحده ديوان ولا مكان، وكان يكتب بعاطفة جياشة يطلق لها العنان، فيمدح بإسراف، ويهاجم بقوة وعنف، ويعاتب بحدة، ويغمز هذا، ويلمز هذا، ونتيجة لهذا فان قارئ رسائل الصابئ ربما لا يشعر بجيشان القريحة وفورانها كما يحسها عند بديع الزمان، ولعل هذا هو السبب الذي دفع أبا محمد ابن القاسم إلى وصف بديع الزمان بالطبع،

---

(١) انظر: السابق ص ١٢١ .
(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص ٢٤٠.
(٣) السابق: ص ٢٥٠ .
(٤) بديع الزمان الهمذاني رائد القصة: ص ٢٥٤ .
(٥) السابق: ص ٣٥١ .

ووصف الصابي بالتكلف(١).

يضاف إلى ذلك أن بديع الزمان كان يكتب بحرية في أي موضوع غير مقيد برأي أحد، ولا يأتمر لرأي أمير أو أوزير، فلم يكن كابن العميد والصاحب والصابي والمهلبي وقابوس، وزيرا أو ذا منصب، ولم تستغرق كتابته أمور الدولة، وكثرت في رسائله الموضوعات الخاصة والعامة، واستبانت نواح من عصره في السياسة والأخلاق، والآداب وغيرها(٢).

أما الصابي فكان يكتب ما يُملى عليه(٣)، كذلك كان كما يقول أبو حيان التوحيدي: "وأبو إسحاق معانيه فلسفية"(٤). وقد عاب الناس عليه كلفه بالصنعة والتقفية في المخاطبات الديوانية، يقول ابن خلدون: "فتعاطى الصنعة والتقفية وأتى بذاك بالعجب، وعاب الناس عليه كلفه بذلك في المخاطبات السلطانية، وإنما حمله عليه ما كان في ملوكه من العُجمة، والبعد عن صوْلة الخلافة المنفقة لسوق البلاغة"(٥).

لذا لم تهْفُ النفوس إلى قراءة رسائل الصابئ لأن أكثر كتاباته في شؤون إدارية كما ذكرنا، ولعل اللافت في رسائله هي تلك الأجزاء الوصفية ففيها يجيد الرصف، ويحكم القول، وفيها إسهاب واضح(٦).

فلعل هذا كله هو ما دفع ابن القاسم أن يرى في أسلوب الصابي تكلفا وافتعالا وصنعة، يقول: "وشتان بين الكلام المطبوع، والمنمق المصنوع". ويعني بالمنمق المصنوع أسلوب الصابي.

أما بديع الزمان فقد غلبت الصنعة على أسلوبه، وكان ذلك طابع القرن الرابع الهجري، ومقياس براعة الكاتب، وقد سار بديع الزمان في رسائله ومقاماته مع لغة العصر وأسلوبه، وإن تعمد التكلف والصنعة في بعض الأحيان إظهارا لمقدرته اللغوية، فأسلوبه وطريقته في الكتابة هو امتداد لأسلوب الكتابة في القرن الرابع الهجري.

يقول في المقامة الجاحظية يعيب على الجاحظ سهولة ألفاظه، وسلاسة عباراته، وبعده عن الصناعة والزينة اللفظية: "فَهَل تَرْوُونَ لِلْجاحِظِ شِعْراً رائِعاً؟ قُلْنَا: لاَ، قَالَ: فَهَلُمُّوا إِلَى كَلاَمِهِ، فَهْوَ بَعِيدُ الإِشارَاتِ، قَلِيلُ الاسْتِعَاراتِ، قَرِيبُ العِبَارَات، مُنْقادٌ لعُرْيَانِ الكَلاَمِ يسْتَعْمِلُهُ، نَفُورٌ مِنْ مُعْتَاصِهِ يُهْمِلُهُ،

(١) انظر: مجلة علامات في النقد الأدبي: مجلد (٥)، الجزء (٢٠)، خلاف بين أديبين أندلسيين في المفاضلة بين أبي إسحاق الصابي وبديع الزمان الهمذاني: محمد الهدلق ص١٢٦،١٢٧، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية.

(٢) انظر: مجلة الرسالة، العدد ٤٥، بديع الزمان الهمذاني: د.عبد الوهاب عزام، القاهرة، مايو ١٩٣٤م.

(٣) انظر: يتيمة الدهر ٢٩٢/٢، معجم الأدباء ١٤١/١، ١٤٢.

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٦٧/١.

(٥) مقدمة ابن خلدون (وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون): عبد الرحمن بن خلدون ٨٠٣/١، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٤٣١هـ- ٢٠٠١م.

(٦) انظر: النثر الفني في القرن الرابع الهجري: د. زكي مبارك ٣٦٣/٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠م.

فَهَلْ سَمِعْتُمْ لَهُ لَفْظَةً مَصْنُوعَةً، أَوْ كَلِمَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ؟ فَقُلْنَا: لاَ"(١).

فهذا دليل على أن الصنعة في الكتابة، والاعتماد على الزخارف اللفظية هي ميزان المهارة والبراعة في ذلك العصر.

ومع بلوغ الصنعة غايتها أحيانا في كتاباته، إلا أن براعته وبلاغته الواضحة في رسائله ومقاماته قد طغت عليها، وقد أثنى عليه معاصروه ثناء حسنا يؤكد ريادته في الكتابة، وإنك لتقرأ رسائله ومقاماته فتشدك وتمتعك إمتاعا يلهيك عما فيها من ألوان بديعية وزخارف لفظية، وذلك راجع لانشغاله بما يكتب وانفعاله به، وصدق التجربة التي يحياها، كما رأينا في رسالته السابقة التي عارضها ابن حزم، وفي هذا ما يلهي القارئ ويشغله عن التفكير في الزخارف اللفظية التي تحفل بها كتاباته.

إن نثر بديع الزمان ذو طابع خاص، يصدر فيه عن نفسه وحسه، ولا يستغني شاد في الأدب عن الأخذ منه، وقلَّ في الكتاب من أحدث له طريقة كطريقته، ولو ادعى مدع أن الكتابة ما ختمت بابن العميد كما قالوا بل بالهمذاني لكان حقا ومذهبا(٢).

٢- مقامات بديع الزمان

يرى ابن أبي الخصال مقامات بديع الزمان حيلا وألاعيب، وأنها من قبيل الهزل، بعيدة عن الجد، يقول: "أما إنَّ لأبي الفضل فضْلا يُرْعَى، وهو بعد أبي إسحاق مَرعى، ويُدْعَى إثْره أوّلَ مَنْ يُدْعَى، من رجلٍ لطيفِ الحيلة، مُشَخِّصٌ للأوهامِ المُستحيلة، إن أصاب فُرصَةً قتَل، وإن أخطأَها ختلَ، ومسحَ بالذُّروةِ والغاربِ وفتل، ضيَّق من الكلام ما توسَّع، ورقَّعَ الكُوى بالمَحاجر ورصَّعَ، وشعَّبَ وفرَّعَ، واخترعَ من تلكَ الأخاليق ما اخترعَ، فأحسنَ وتمَّم، وأدرك من تلك الغاية ما يمَّمَ ... وأنا لا أعدلُ الهزلَ بالفصلِ، ولا الخَيْزُرانَةِ بالنَّصْلِ"(٣).

ولا يصح في رأيه أن يحكم بين الجد وهو كلام الصابي، والهزل يعني مقامات بديع الزمان، وهذا القول مردود عليه، فالمتأمل في مقامات الهمذاني يجد أنها لسان حال المجتمع الذي كان يحيا فيه، وهي تكشف عن صورة الظلم والحرمان، والبؤس وسوء الحال الذي كان يحياه الأدباء في القرن الرابع الهجري، فهي "من اللون الثائر الناقد الذي يحمل الثورة على ذلك المجتمع الذي عاش فيه، ويحمل النقد لتلك البيئة التي احتوته من همذان إلى هراة ... المقامات هي أدب الشعب حقا، وهل الأدب بألوانه مادام لا يبعد عن البيئة إلا للشعب الذي تنتظمه

(١) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني: ص ٦٠، ٦١ .

(٢) انظر: كنوز الأجداد: محمد كرد علي، ص١٧٩، ١٨١، بغداد ٢٠١٠م.

(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٤٩ -١٥١.

تلك البيئة؟!"(١).

لقد كانت المقامات سجلا صادقا للحياة والواقع، فقد رأينا حقيقة نفوس الناس، وطبيعة حياتهم، وظروف معاشهم ومعاملاتهم، إن الهمذاني في مقاماته "يقدم لنا صورة توشك أن تكون متكاملة، إذ يحدثنا عن مجالس أهل العلم والأدب وما يدور فيها من مساجلات ومناظرات؛ ومجالس الشراب والطرب وما يدور فيها من أقداح وآلات؛ ويحدثنا عن الوعاظ والمساجد والأسواق، والدور والحمامات، والحوانيت، والمطاعم، والحانات؛ وهو يرسم لنا من خلال ذلك كله كثيرا من صور الذين يتحدث عنهم بأزيائهم وهيئاتهم حتى نوشك أن نراهم بثيابهم، ونستمع إليهم بألفاظهم؛ ونرى مرآة الناس وشخصياتهم في أعمالهم وتصرفاتهم"(٢).

وعلى سبيل المثال نجد صورة البخل والبخلاء متمثلة في التاجر البخيل حديث النعمة في المقامة المضيرية(٣)؛ ونرى فئة اللصوص وحيلهم والطرَّارين وعملهم في المقامة الرُّصَافية(٤)، ونرى جانب اللهو والمجون والاستهتار في المقامة الخمرية(٥).

وفي المقامات: الأهوازية، والوعظية، والخمرية(٦) يكشف بديع الزمان عن نموذج الواعظ الذي يخالف قوله فعله، فمع غلبة الكدية والاحتيال على مقامات الهمذاني فهي لا تخلو من مشاهد يكون فيها البطل المخادع واعظا؛ لكنه الوعظ الذي يرمي من ورائه إلى الاحتيال والخداع في أغلب المواقف."ولسنا نغالي إذا قلنا: إن بديع الزمان أعطانا صورة أوضح مما أعطانا التاريخ عن نفاق سوق الوعظ، حين ذكر لنا مدى انتشار الوعاظ، وإقبال العامة عليهم، حتى لفت ذلك أنظار الدجالين فتطفلوا على الوعظ، واتخذوه حرفة للتكسب، ومطية لنيل المآرب"(٧).

وفي المقامة البغدادية(٨) وصف للسوق وما فيه من المطاعم والحوانيت وأنواع الطعام، والحديث عن الأدب والشعر نراه في المقامات: القريضية، والجاحظية والعراقية(٩). وغير ذلك من الصور والموضوعات التي تؤكد أن المقامة ولجت شتى الموضوعات، وأكدت أن النثر – كالشعر - قادر على ارتياد شتى الأغراض، فكانت تراثا أدبيا زاخرا، استحق الحياة إلى عصرنا هذا.

والصورة الهزلية التي يقصدها ابن أبي

---

(١) مجلة المجلة، السنة الخامسة، العدد ٦١، رمضان ١٣٨١هـ- ١٩٦٢م: المقامة من أدب الحياة: إبراهيم الإبياري، ص٥١ ،٥٢.

(٢) مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته:د.مازن المبارك: ص٣٥، دار الفكر، دمشق، الثانية١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٣) انظر: مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص٨٣ .

(٤) انظر: السابق ص١٤٨ . الطرارون: الذين يختلسون المال خفية .

(٥) انظر: السابق ص ٢٨١ وما بعدها .

(٦) انظر: السابق ص ٤٦، ١١٦، ٢٨١.

(٧) مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته: ص ٤٧.

(٨) انظر: السابق ص ٤٩.

(٩) انظر: مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ١١، ٥٨ ،١٢٩.

الخصال جاءت قليلة في مقامات بديع الزمان، فهي واحدة من الموضوعات والأغراض الكثيرة التي ولجتها مقامات الهمذاني،! والمتأمل في هذه المقامات يجد أن بديع الزمان عمد إلى مزج الحقيقة الجافة بالصورة المرحة، والجد بالهزل الهادف، واستعان بالتهكم والسخرية في نقد المجتمع وسلبياته، فالهزْل في مقاماته له سبب واضح، وهو نقد سلبيات المجتمع في صورة ساخرة أشبه ما تكون (بالكاريكاتير) في عصرنا، كما جاء في المقامة البغدادية، والمضيرية والحُلوانية(١). وهذا كله ينفي ما رمي به ابن أبي الخصال المقامات، ويدحض حجته من جعلها هزلا لا طائل منه، وألاعيب لا ثمرة من ورائها.

ومع أن ابن أبي الخصال يرى المقامات حيلا وألاعيب وهي من قبيل الهزل الذي لا طائل من ورائه، إلا أن القارئ في رسائله يجد أنه كتب في المقامات، فله مقامة طويلة سار فيها على نهج الحريري في بعض مقاماته(٢).

٣- براعة بديع الزمان وتفوقه في المقامات فقط.

يرى ابن أبي الخصال أن بديع الزمان برع في فن المقامات دون غيرها من فنون النثر، وتناسى أن رسائله ذاع صيتها في المشرق والمغرب، والمتأمل في رسائل بديع الزمان يجد أنها قيمة فنية وزاد أدبي ثري، غاية في البلاغة والبيان، كتبها بأسلوب يشد المتلقي، فجاء بالمعاني البارعة، والأفكار الناصعة، والصور الفاتنة البديعة، وسخر ما استطاع من ذوق أدبي، ومعرفة عميقة، وصلة وثيقة بالتراث السابق عليه، حتى جاءت رسائله في هذا الشكل الفني، وهذا القالب الخاص الذي كشف عن براعته، وتميزه بين كتاب عصره، حتى أثنى عليه النقاد قديما وحديثا، وجعلوه في الطبقة الأولى من الكتاب.

والقارئ في رسائل بديع الزمان على مهل يجدها قد تشعبت فنونها، وتنوعت أغراضها، وزاحمت الشعر في موضوعاته وأغراضه، ففيها المدح، والهجاء، والشكوى، والعتاب، والاعتذار، والرثاء والوصف، والود والصداقة، وغيرها من الموضوعات التي ولجها الشعر، مؤكدة بذلك أن النثر كالشعر قادر على ارتياد كل الأغراض، فكانت تراثا أدبيا زاخرا، استحق الحياة إلى عصرنا هذا.

لقد كانت هذه الرسائل لسان عصره، وسجلا صادقا وتصويرا دقيقا لأحوال المجتمع الذي يحيا فيه، "لم يتخلف عن تسجيل حياة العصر وتصوير آلام الناس وشكواهم، ومعالجة مشاكلهم، يكتب في شؤون الدولة المختلفة من سياسية وحربية وتنوير للحكام، أو شكاية من حيف حاق بالرعية نتيجة لفداحة الضرائب مثلا، أو اختلال الأمن، أو ظلم الولاة، أو وصف الغلاء والمجاعات، وكان أديبنا يقرن كتابته بالنقد تارة وبالتوجيه والنصح تارة أخرى، أحيانا في رفق ولين

(١) انظر: السابق ص ٤٩، ٨٣ ، ١٦٠ .
(٢) انظر: رسائل ابن أبي الخصال: ص٤٢٠.

وهوادة، وأحيانا في عنف وشدة وبأس"(١). ونستطيع أن نجد ذلك واضحا في رسائله(٢).

لقد كان بديع الزمان كاتبا حرا لم يقيد قلمه الديوان ككتاب الرسائل الديوانيه، وإنما كان يكتب ما تمليه عليه نفسه، وما يدور في خلده وفكره، لذا تقرأ له فتشعر أنه قريب منا وكأنه يعيش بيننا، إنه "يتحدث عن أشجان وأغراض هي في صميمها ألوان للنفوس الإنسانية... وإذا كان هناك كتابٌ يخاطبونك بما لا تفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك وقلب أجنبي عن قلبك، فإن بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمات النفسية والروحية هي أزماتك أنت لو درست نفسك وتطلعت إلى وجدانك، وهذا هو السر في أن بديع الزمان لا يزال أدبه حيا، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتعاقب الأجيال"(٣). وهذا كله ينفي ما افتعله ابن أبي الخصال من تفوق الهمذاني في المقامات فقط.

٤- لقب بديع الزمان

وابن أبي الخصال يعيب على ابن القاسم فخره بلقب بديع الزمان، ويرى أنه لا وجود له في أصول نسبه ولا فروعه، بل هو منقصة لبديع الزمان وليس فخرا له: "وأما فخرُكَ له باللقب الذي لا يُسَوَّغهُ الشَّرعَ، ولا يحملهُ الأصلُ ولا الفرعُ، فهو إلى أن يكون غِلَّ إسَارٍ، أقربُ منه إلى أن يكون طَوْقَ نُضَار"(٤).

وأقول:إن أحدا لا يستطيع أن ينكر مقدرة بديع الزمان الأدبية واللغوية،وشهرته الفائقة في المشرق والمغرب خاصة مقاماته، بعدما طار ذكره في الآفاق بعد مناظرته لشيخ الكتاب في عصره أبي بكر الخوارزمي.

وهذا اللقب- الذي جعله ابن أبي الخصال منقصة للهمذاني- قد أطلقه عليه معاصروه لما رأوه من بلاغته وإجادته وبراعته في الكتابه، "وليس هناك كاتب في القرن الرابع نال من التمجيد والثناء ما ناله بديع الزمان، وحتى اسمه لا يعرفه الناس، وإنما يعرفونه بلقبه الذي أطلقه عليه معاصروه، وإنه ليفصح عن مدى إعجابهم به"(٥).

يقول أبو منصور الثعالبي مشيدا ببديع الزمان: "هو أحمد بن الحسين بديع الزمان، معجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر، وغرة العصر، ومن لم يبق نظيره في ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء الذهن، وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في طرف النثر وملحه ،وغرر النظم ونكته، ولم يرَ ولم يروَ أن أحدًا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل

(١) بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية ص ٢٤١ .

(٢) انظر: كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان: الصفحات: ٨ ، ١٥، ١٦، ١٩ ،٢١، ١٠٥، ١١٢، ١١٦، ١٣١، ١٦١ ،١٦٢، ١٩٢، ٢٢١، ٢٧٠، ٢٧٥، وغيرها.

(٣) النثر الفني في القرن الرابع الهجري: ٤٢٧/٢.

(٤) رسائل ابن أبي الخصال: ص ١٥٤ .

(٥) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص ٢٤٠ .

إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب، وبدائع وغرائب"(١).

ويقول الحصري القيرواني بعد قوله: "جملة من كلام أبي الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني بديع الزمان: وهذا اسم وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، وكلامٌ غض المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفًا، والهوى يعشقه ظَرفا"(٢).

ويعترف الحريري بفضله في مقدمة مقاماته فيقول: "هذا مع اعترافي بأن البديع- رحمه الله- سباق غايات، وصاحب آيات، وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامة، لا يغترف إلا من فضالته، ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته"(٣).

ويقول الشريشي شارح مقامات الحريري:"وقد صرح علماء الأدب في كتبهم بتفضيل البديع على نظرائه من أهل زمانه، ولقبه بالبديع يدل على قدره الرفيع، قال:

وقلما أبصرتْ عيناك من رجل

إلا ومعناه - إن فتشت- في لقبه

وسئل بعض علماء الأدب من أهل عصرنا عن الحريري والبديع فقال: لم يبلغ الحريري أن يسمى بديع يوم؛ فكيف يقارِن بديع الزمان!.

وجرى ذكر مقاماته في مجلس بعض شيوخنا، وكان حافظا أديبا، فقال: مقامات البديع يحكى أنها ارتجال، وأن البديع كان يقول لأصحابه في آخر مجلسه: اقترحوا غرضا نبني عليه مقامة، فيقترحون ما شاءوا، فيملي عليهم المقامة ارتجالا في الغرض الذي اقترحوه؛ وهذا أقوى دليل- إن صح- على فضل البديع"(٤).

فلقب بديع الزمان هو دليل على مكانته الأدبية وبراعته الفنية، وقد اعترف له النقاد في القديم والحديث بذلك، فما السر في إعجاب ابن أبي الخصال بالصابي وتفضيله إياه على البديع؟!

لعل السر في ذلك - كما يرى الدكتور محمد الهِدلق: هو التشابه بين ابن أبي الخصال والصابي في المهنة، فقد كان ابن أبي الخصال كاتب إنشاء ممتازا، وعمل في ديوان الرسائل في عهد المرابطين، وكان الصابئ قبله كاتب إنشاء ورئيسا لديوان الرسائل في عهد البويهيين ببغداد، وكل منهما قامت شهرته أساسا على فن الترسل، فثناء ابن أبي الخصال على ترسل الصابي هو في حقيقة الأمر ثناء على نفسه وأسلوبه وطريقته بطريق غير مباشر، وأما بديع الزمان فهو كاتب رسائل بليغ، ولكنه لم يل ديوان الرسائل في دولة من الدول، وشهرته طبقت الآفاق بمقاماته وليس برسائله، فلو ذهب ابن أبي الخصال يعلي من شأن المقامات ويفضلها على الترسل أو حتى يساويها به فهذا يعني أن سيحط من شأن الفن الذي قامت شهرته

(١) يتيمة الدهر: ٢٩٣/٤ .

(٢) زهر الآداب: ٣١٥/١ .

(٣) شرح مقامات الحريري: ٢٤/١.

(٤) السابق: ٣٢/١.

عليه وهو الترسل، ويؤيد هذا أن ابن أبي الخصال قد أدخل في الحكم بين الكاتبين أمرا لا صلة له بالفن وهو المنصب الذي يتولاه الكاتب ودوره في التأثير على الناس، فرئيس ديوان الرسائل يحتل بلا ريب منصبا مؤثرا، وبإمكانه أن ينفع ويضر، ولكن ما علاقة هذا كله بالحكم بين الأديبين من الناحية الفنية؟!(١).

يضاف إلى ذلك براعة بديع الزمان في كتابة الرسائل والمقامات على السواء، وقد طبقت شهرتها الآفاق وذاع صيتها في المشرق والمغرب، أما ابن أبي الخصال فكان كاتب رسائل فقط، وإن كانت له مقامة واحدة عارض بها الحريري في بعض مقاماته(٢).

وإن تعجب فعجب انتصار ابن أبي الخصال للصابي مع اتباعه طريقة بديع الزمان في الكتابة، ومع هجومه على السجع والحلى اللفظية فإن نثره يكتظ بهذه الأساليب، وقد ذكر ذلك في رسالته، يقول: "وهل نفس التكلف إلا ما دفع البديع إليه، وتبعناه – معشر الضعفاء - عليه، حين عدلنا عن المنهج، ودخلنا تحت الحرج، ولو شاء الله بنا يسرا، لوضع عنا من هذه المشقة إصرا"(٣).

فهذه شهادة ضمنية بتكلف ابن أبي الخصال نفسه، وشهادة صريحة باتباعه مذهب بديع الزمان في الكتابة. "وهذا نص يندر أن نقع على مثله لأنه يقف في وجه التيار، ويخالف ما كان الأندلسيون يتسابقون في الوصول إليه، ولا نكاد نسمع مثل هذا الهجوم على السجع قبل ابن خلدون... ولكنا نرى الرجل منقادا في أسلوب عصره، غارقا فيما يهاجمه"(٤).

وقد جاءت رسالة ابن أبي الخصال طويلة، وكأنه يشعر بأنه لم يلتزم الجادة فيما ذهب إليه، فراح يقدم البراهين على تقديم الصابى، ويقنع المتلقي بهذه الآراء التي ذهب إليها في حكمه على الكاتبين.

إن هذه المفاضلة تؤكد على منزلة بديع الزمان في الأندلس؛ وأثره الواضح في كتاباتهم، وهي "صورة من صور المناقشات التي كانت تدور في محافل الأندلسيين، وجدنا فيها ما يرفد تاريخ الأدب وما يوضح مجرى آرائهم في النثر والكتابة، ويبين موقفا معينا إزاء كاتبين من المشارقة وطريقتهما وأسلوبهما(٥).

وهي تعكس عناية الأندلسيين بالأدب المشرقي، ونظرتهم إليه، ومتابعتهم إياه متابعة دقيقة، ومحاولة تمثلهم هذا الأدب في نتاجهم الفني، كما توضح أثر بديع الزمان في كتاباتهم، وتأثرهم به، وتؤكد على منزلته ومقدرته الأدبية والفنية.

---

(١) انظر: خلاف بين أديبين أندلسيين: ص ١٢٨، ١٢٩.
(٢) انظر: رسائل ابن أبي الخصال ص ٤٢٠.
(٣) السابق : ص ١٥٣.
(٤) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس: د. محمد رضوان الداية، ص ٣٤٥، مؤسسة الرسالة، دمشق، الثانية ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
(٥) انظر: السابق: ص ٣٤٥.

الفصل الثالث:

أثر مقامات بديع الزمان

يقول ابن عبد الغفور الكلاعي في نهاية حديثه عن مقامات بديع الزمان: "ومحاسن أبي الفضل لا تنتهي، أو يُنتهى عنها، وقد عارضه في هذه المقامات جماعة من الكتاب، بما نزهت عن ذكره هذه الكتاب"(١).

وكلام الكلاعي يقضي بأن مقامات بديع الزمان وصلت إلى الأندلس وقد عارضها بعض الكتاب الأندلسيين، ويبدو أن هذه المقامات كانت بين يديه لكنه لم يثبتها، تنزيها عن ذكرها في رسالته التي سماها: إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس.

وكان من الطبيعي أن ينتقل فن المقامة من المشرق إلى الأندلس، عن طريق الرحلات التي قام بها كثير من الأندلسيين إلى الشرق يطلبون العلم، والذين عادوا إلى موطنهم بعد أن درسوا – ضمن ما درسوا- هذا الفن، فنشروه بين مواطنيهم(٢).

وقد وصلت مقامات بديع الزمان ورسائله إلى الأندلس- كما يقول إحسان عباس- في أواخر عصر سيادة قرطبة، وقام بعض الكتاب بإنشاء مقامات تقليدا أو معارضة(٣).

ومن الذين عارضوا مقامات بديع الزمان ونسجوا على منوالها ابن شرف القيرواني، وهو من الوافدين على الأندلس، ففي الذخيرة إشارة صريحة من ابن بسام إلى أنه عارض هذه المقامات ونسج على منوالها، يقول: "ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه، وصب فيها على قالبه"(٤).

يقول ابن شرف في مقدمة مقاماته مؤكدا ذلك: "واحتذيت فيما ذهبت إليه، ووقع تعريضي عليه، من بث هذه الأحاديث ما رأيت الأوائل قد وضعته في كتاب كليلة ودمنة،... وقد نحا هذا النحو سهل بن هارون... وزوَّر أيضا بديع الزمان... مقامات كان ينشئها بديها... فأقمت من هذا النحو عشرين حديثا أرجو أن يتبين فضلها، ولا تقصر عما قبلها"(٥).

ومن يقرأ في الذخيرة يجد ابن بسام يورد عددا من المقامات لبعض الكتاب الأندلسيين، يمكن أن تكون تأثرت بمقامات بديع الزمان، لكنه لم يصرح أنها جاءت معارضة لبديع الزمان(٦).

---

(١) إحكام صنعة الكلام ص ٢٠٤ .

(٢) انظر: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار: لسان الدين بن الخطيب السلماني، تحقيق ودراسة: د. محمد كمال شبانة، ص٥٤، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٢م

(٣) انظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٣.

(٤) الذخيرة ١٩٦/١/٤.

(٥) مسائل الانتقاد: محمد بن شرف القيرواني، تحقيق: د.النبوي عبد الواحد شعلان، ص ٨٠-٨٣، مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٨٢م.

(٦) انظر في ذلك: تاريخ الأدب الأندلسي(عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٥، وما بعدها.

وهذه المقامات يدور بعضها حول المدح، كمقامة أبي محمد بن مالك القرطبي(١)، وبعضها يدور حول الرحلة والتنقل بين الممالك الأندلسية كمقامة أبي الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم، وفي نهايتها جانب من المدح أيضا(٢)، وبعضها يدور حول الشعر والأدب، كمقامة عبد الرحمن بن فتوح، وهي مقامة نقدية يصدر فيها أحكاما عامة على أدباء عصره(٣).

وبعض هذه المقامات يدور حول الوصف كمقامة أبي حفص عمر بن الشهيد، وقد أوردها ابن بسام تحت عنوان: "وله من مقامة حذفت بعض فصولها لطولها"(٤) وفيها لوحات وصفية تؤكد قدرة كاتبها على السرد، والحوار، والقص البسيط، وهي تقترب من مقامات بديع الزمان من هذه الناحية، وإن كانت تختلف عنها من حيث خلوها من عنصري الكدية والحيلة التي اتسمت بها أكثر مقامات بديع الزمان.

هذه المقامات خلت من شخصيتي البطل والراوي، وأصبحت على لسان كاتبها، وهي مقامات مفردة تدور حول موضوع واحد، فهي مدحية، أو وصفية، أو غير ذلك من الموضوعات، لذا فهي تختلف عن مقامات بديع الزمان من حيث موضوعها، وقد انتفى منها عنصر الكدية والحيلة، واقتربت من الرسالة في موضوعاتها وأغراضها(٥).

وهذه المقامات وغيرها كانت قبلتها الأولى التي تتوجه إليها هي مقامات بديع الزمان، فقد تأثر بها كاتبوها، واستقوا منها، وكانت في أذهانهم وقت تحبير مقاماتهم وإنشائها، حتى ألف أبو القاسم الحريري(٤٤٦هـ-٥١٦هـ) مقاماته، فكانت النموذج الذي يحتذي حتى يومنا هذا.

وفي هذه السطور أحاول أن أقف على أثر بديع الزمان ومقاماته في كتابات بعض كتاب الأندلس، وقد بدا هذا الأثر واضحا في بعض كتابات ابن شهيد وابن برد الأصغر.

أولا- رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي

لعل أول من تأثر بمقامات بديع الزمان من الكتاب الأندلسيين ابن شهيد الأندلسي(٦) في رسالته التوابع والزوابع(٧)، فقد استمد من مقاماته واتخذ منها مادة لبناء رسالته، خاصة

(١) انظر: الذخيرة: ٧٤١/٢/١. وهي في مدح المعتصم بن صمادح أمير المرية.
(٢) انظر: السابق: ١١٣/١/٢- ١١٨.
(٣) انظر: السابق: ٧٨٦/١.
(٤) انظر: السابق: ٦٧٤/٢/١- ٦٨٥.
(٥) انظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٨.
(٦) الوزير الكاتب الشاعر أحمد بن شهيد الأشجعي، له من الآثار الأدبية ما يدل على فضله وثقافته، ت ٤٢٦هـ. انظر في ترجمته: الذخيرة ١٩١/١/١، المغرب ١/ ٧٨، ٧٩.
(٧) انظر: الذخيرة ١/١/ ٢٤٨، التوابع جمع تابع أو تابعة وهو الجن يكون مع الإنسان يتبعه حيث ذهب، والزوابع جمع زوبعة، وهو اسم شيطان أو رئيس الجن.

المقامة الإبليسية من مقامات بديع الزمان، فما علاقة التوابع والزوابع بمقامات بديع الزمان الهمذاني؟!

تحكي المقامة الإبليسية[١] من مقامات بديع الزمان أن الراوي عيسى بن هشام ضلت إبله فراح يبحث عنها، ثم دخل واديا من أرض الجن وهو لا يعلم بأمره، وهناك قابل شيخا يسمى أبا مرة، وهي كنية إبليس، فقال له: "أصبت دالتك، ووجدت ضالتك، فهل تروي من أشعار العرب شيئا؟"، فأنشده شعرا لامرئ القيس، وعَبيد بن الأبرص، ولَبيد، وطَرفة، فلم يطرب لشيء منه، ثم أنشده الشيخ شعرا لجرير، ثم قال له: "فما أحد من الشعراء إلا ومعه مُعينٌ منا، وأنا أمليت على جرير قصيدته، وأنا الشيخ أبو مرة"، ثم غاب أبو مرة ولم يظهر بعد ذلك، ثم تنتهي المقامة بلقاء عيسى بن هشام بأبي الفتح الإسكندري بطل المقامات. فالفكرة في هذه المقامة تدور حول شياطين الشعراء، وكانت العرب تعتقد أن لكل شاعر رئيا من الجن يلقي إليه بشعره، ويمليه قصائده[٢].

والقارئ لرسالة ابن شهيد يجد الصلة واضحة بينها وبين هذه المقامة من حيث لقاؤه بتوابع الشعراء والكتاب في أرض الجن، فقد استغل فكرتها وبني عليها رسالته، "وقد اتسع ابن شهيد بالفكرة وطورها تطويرا بديعا، وجعل للكتاب في تلك الأرض توابع كتوابع الشعراء"[٣].

فهو يحدثنا أنه طلب إلى تابعه زهير بن نمير أن يلقى توابع الكتاب، فالتقى بتابعي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب، والتقى أيضا بتابع بديع الزمان وسماه زبدة الحقب، وهؤلاء عنده قمة الكتابة، وابن شهيد يراهم من التفوق بمكان، وهم أولى الكتاب بالمعارضة، بل يرى نفسه مقدما عليهم.

يقول مخاطبا زبدة الحقب تابع بديع الزمان: "اسمعنى وصفك للماء" فأَسمعه، ولما انتهى من وصفه، وصف ابن شهيد الماء وكأنه يعارض تابع بديع الزمان في وصفه للماء، وبعدما انتهى من وصفه ضرب زبدة الحقب الأرض برجله فانفجرت، وغاب حتى انقطع أثره[٤].

إن هذا النص يفضي إلى تفوق ابن شهيد على تابع بديع الزمان، على الأقل أمام ابن شهيد نفسه، فالصلة واضحة بين العملين من حيث لقاء توابع الشعراء في وادي الجن، وفي النهاية يتأكد لنا تأثر ابن شهيد ببديع الزمان، وأن كتاباته خاصة - المقامة الإبليسية - كانت في ذهنه وقت إنشاء التوابع والزوابع.

---

(١) مقامات أبي الفضل بديع الزمان: ص ١٧٣– ١٨٨ .

(٢) انظر في الحديث عن شياطين الشعراء: جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، تحقيق: علي محمد البجاوي ص٤٧ وما بعدها، طبع نهضة مصر، القاهرة ١٩٨١م.

(٣) انظر: محاضرات مجمعية: د. شوقي ضيف ص ٢٤٦، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

(٤) انظر: الذخيرة ٢٧٦/١/١ .

كما يظهر أيضا تأثر ابن شهيد بالمقامة البغدادية من مقامات بديع الزمان في رسالته في وصف الحلواء، من ناحية موضوعها، ففي البغدادية يسخر بديع الزمان من سوادي من أهل الريف يوهمه عيسى بن هشام (راوي المقامات) أنه يعرفه، ثم يأتي له بأطيب أنواع الطعام والشراب، والسوادي يظن أنه يأكل ضيفا، وبعد الانتهاء من الطعام يحتال عيسى ويهرب، وعندما استبطأ السوادي عيسى هم بالانصراف وقام إلى حماره، فاعتلقه الشواء بإزاره، قائلا له: أين ثمن ما أكلت؟ فقال: إنما أكلته ضيفا، فلكمه الشواء لكمة، وثنى عليه بلطمة، إلى أن دفع ثمن الطعام، وظل السوادي يبكي، ويقول: "كم قلت لذاك القريد: أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد"(١).

وفي رسالة الحلواء يسخر ابن شهيد من فقيه أكول جذبته أنواع الحلوى المختلفة، وظل يتأمل أشكالها وأنواعها يود أن يتذوقها، إلى أن ابتاع له ابن شهيد شيئا منها فالتقمها جملة، ثم تجشأ فهبت منه ريح عقيم فرقتهم شذر مذر(٢).

والصورة الهزلية واضحة إلى جانب المغزى الرئيس من المقامة، فقد عمد بديع الزمان إلى مزج الحقيقة الجافة بالصورة المرحة، والجد بالهزل الهادف، واستعان بالتهكم والسخرية في نقد المجتمع وسلبياته، وهي صورة من صور المجتمع الذي كان يحيا فيه الهمذاني، وهي صورة الرجل المحتال الذي يحتال على البسطاء للحصول على أموالهم أو ينتفع من ورائهم بأي سبيل كان.

فالتشابه قائم، والتأثر واضح، "والنكتة في الرسالتين متشابهة، فهي عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكول، وعند بديع الزمان استهزاء بفلاح منهوم، ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد"(٣).

وقد تقترب رسالة الحلوى لابن شهيد في مغزاها أيضا من المقامة المضيرية(٤) من مقامات بديع الزمان، وفيها يصف مضيرة تلمظت لها شفاه القوم واتقدت أكبادهم: يقول الراوي: "وَرَفَعْنَاهَا فَارْتَفَعَتْ مَعَهَا الْقُلُوبُ، وَسَافَرَتْ خَلْفَهَا الْعُيُونُ، وَتَحَلَّبَتْ لَهَا الأَفْوَاهُ، وَتَلَمَّظَتْ لَهَا الشِّفَاهُ، وَاتَّقَدَتْ لَهَا الأَكْبَادُ، وَمَضَى فِي إِثْرِهَا الْفُؤَادُ".

وابن شهيد في رسالته -أيضا- يصف بعضا من أنواع الحلواء المختلفة وما تحدثه في النفوس من اتقاد الفؤاد وتلمظ الشفاه، فقد جذبت الشيخ الفقيه لها، حتى "استخفه الشره، واضطرب به الوَلَه، فدارَ في ثيابه، وأسالَ من لعابه"، فالفكرة متشابهة، والتأثر واضح،

(١) انظر :مقامات أبي بديع الزمان الهمذاني ص ٤٩.

(٢) انظر: الذخيرة: ١/١/٢٧٠ ، ٢٧١.

(٣) النثر الفني في القرن الرابع الهجري: ٣٨٤/٢.

(٤) انظر: مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص٨٣، ٨٥، المضِيرة: نوع من الطعام يتخذ من اللحم واللبن الحامض.

وهو ما يؤكد قراءة ابن شهيد لمقامات بديع الزمان وتأثره به.

إن إشارة ابن شهيد إلى بديع الزمان في رسالة التوابع والزوابع دليل على أنه قرأ مقاماته واطلع عليها، وقد تمثلها ونمّاها وتوسع في خيالاتها، وأضاف إليها ما جعلها تخدم غرضه الخاص في قصته الخيالية الطويلة(١).

ولعل أثر بديع الزمان الواضح في ابن شهيد هو ما جعل الدكتور إحسان عباس يرى أنه أول من تذوق هذه المقامات ونسج على منوالها، وحذا حذوها في كتاباته، "وأكثر ما أعجبه فيها تلك القطع الوصفية، ولذلك أنشأ على مثالها قطعا في وصف الماء، والبرغوث، والثعلب، والحلوى"(٢).

ويذهب الدكتور مصطفى الشكعة إلى أبعد من ذلك فيرى أن ابن شهيد متأثر بعدد آخر من مقامات بديع الزمان "مثل المقامة البشرية والمقامة الحمدانية(٣) وفيها وصف جميل للفرس، يقابله وصف الإوزة في التوابع والزوابع، والمقامة الجاحظية(٤) وفيها وصف لبلاغة الجاحظ وابن المقفع، يقابله وصف لبلاغة الجاحظ وعبد الحميد عند ابن شهيد، ويظهر تأثر ابن شهيد ببديع الزمان في الموضوع والأسلوب والفكرة في وصفه الحلوى"(٥).

بل إن الدكتور شوقي ضيف يرى أن ابن شهيد قد استمد من بديع الزمان مباشرة "فلم يدخِل إلا تغييرات قليلة، وتعديلات طفيفة"(٦) على رسالته.

إن رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد إنما تؤكد لنا تأثره ببديع الزمان في مقاماته، وإعجابه بكتاباته، ونسجه على منواله، وهذا يكشف لنا عن أثر بديع الزمان في كتاب الأندلس.

ثانيا- رسالة النخلة لابن برد الأصغر

في نثر ابن برد الأصغر(٧) رسالة سطرها في النخلة؛ وفيها يعاتب صديقا له سبق أن عاتبه في العام الفارط على كتمانه جنى نخلته التي تعد بأرض الأندلس "إحدى الغرائب، وفريدة العجائب"، وكان قد وعده ورفاقه بنصيب من جنى نخلته إن هي أتمرت في عامها المقبل، إلا أنه راح يقطف ثمارها ليلا دون أن يخبر أحدا منهم، ولم يوف بوعده لهم(٨).

---

(١) انظر:الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ص ٦٨١ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص ٣٠٣ .

(٣)انظر: مقامات أبي الفضل بديع الزمان ص ٣٠٤، ١٤١ .

(٤) انظر: السابق ص ٥٨ .

(٥) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ص ٦٨٠.

(٦) انظر: المقامة: د. شوقي ضيف ص٣١، دار المعارف، القاهرة، السابعة ١٩٩٥م.

(٧) كاتب بليغ، وشاعر مليح الشعر، من أهل بيت أدب ورياسة، رآه الحميدي بالمرية بعد ٤٤٠هـ . انظر: جذوة المقتبس: ص ١١٥، الذخيرة: ٤٨٦/١/١.

(٨) انظر: الذخيرة : ١/١/ ٥٢٨ – ٥٣١ .

يقول الكاتب مخاطبا صاحب النخلة، مستهلا رسالته بهذا الدعاء الذي ينطوي على شيء من التعريض بالبخل وعدم الوفاء بالوعد: "جعلكَ اللهُ من المؤثرينَ على أنفسهم والمُوقَّين شُحَها، والمُنجزينَ لمواعيدِهم والمعطينَ صِدقَها، فقد علمتَ ما سلفَ لنا في العام الفارطِ من عتابِكَ، ولبِسْنَا شكتَه من ملامِك، لما كتمتنا صَرامَ النخلةِ التي هي بأرضِنا إحدى الغرائب، وفريدةُ العجائب، هربًا من أن نلزمَكَ الإسهامَ في رطبِها، وحرصًا على تمامِ لذةِ الاستبدادِ بها، وقلتَ - وقد سألنَاكَ من جَناهَا قليلا، ورجوْنَا أن تُنيلنَا منها ولو فتِيلا - لو علمتُ أن لكمْ به هذا الكَلَف، وإليه هذا النزاع، لأَمسكتُه عليكم، وجعلتُ حكم جِداده إليكم، ولكنّها - إن شاء الله - في العام الآنفِ غُلَّتُكُم، عتادٌ نفيسٌ لكم، وذُخرٌ حبيسٌ عليكم"(١). وفي هذا النص تظهر نزعة الكدية واضحة .

ويمضي الكاتب موضحا كيف كان حاله ورفاقه وهم ينتظرون مرور الأيام ليظفروا بما وعدهم به صاحبهم، فيقول: "ولما رأينَا على ذلكَ طلائعَ الرُّطبِ في الأسواقِ، والجَنِيَّ من بكرِ النخيلِ على الأطباقِ، هزَّتْ جوانحَنا ذكرُ العدةِ، وقَلْقلَ أحْشاءَنا حَذَرُ الخيبةِ، فركضْنَا الهماليجَ إلى حُرمتِكَ، وجعلنا نشتدُّ طمعًا في لقائِكَ"(٢).

فلما توجهوا إلى صاحب النخل لقيهم فتى سألهم عن بغيتهم، فأخبروه بأمرهم، فأعلمهم أن صاحب النخلة قد صرمها منذ خمسة عشر يوما، وقد كان هذا الفتى يمنح ثمرها النظر، ويتمنى الحصول على القليل منه، يقول: "يا لإخواني في الخيبةِ ، وشركائِي في فوتِ الأملِ، أنا ساكنُ المحلةِ التي مَنبَتُ هذه النخلةِ في ساحتِها، وقد صرمَها منذ خمسةَ عشرَ يومًا، ولقد كنتُ قبل صَرامِهَا، أمنحُهَا نظرَ العاشقِ إلى المعشوقِ، فإذا رأتِ الطيرُ وهي على سَعَفِها، ما أواصلُ إليها من لحَظاتي، وأُتابعُ عليها من زَفراتي، رَمَتْنِي بأفرادٍ من رُطبِها، أحلى من ثِغَاهِ العذَارى، وأنا اليومَ أبكِي منها ربْعًا خاليًا، وبعدَ ثَالثةٍ أغدُو عنها جَالِيًا".

في هذا الأسلوب الساخر يصور لنا الكاتب حال الفتى المغرم بجنى النخلة، الذي كان ينتظر جناها صباح مساء، ويتطلع بشوق ولهفة إلى الحصول على القليل منها، ومع هذا كله لم يستطع الحصول على شيء منها إلا بما رمته به الطيور عطفا عليه، وهي صورة ساخرة مضحكة تدل على مدى الشح المتمكن من صاحب النخل.

ويقبل الكاتب على صاحب النخلة يلومه على عدم الوفاء بوعده، والشح المتمكن منه، ثم يناشده هو والجماعة بأن يجعل لهم نصيبا مما استبقاه لنفسه، طالما فاتهم الحضور يوم صَرَامِها، والحصول على القليل منها، يقول: "فما هذا الخيسُ أبا عبدَ اللهِ بعهدِكَ، وما هذهِ الرُّيْدَةُ في وجه عدوِّكَ، وما هذا الاستئثارُ على إخوانكَ المؤثرينَ لكَ إن كنتَ لم تُحْضِرنَا يومَ صَرامِها، لنحتكِمَ على قولِكَ

---

(١) الجداد : قطفُ النخل أو الثمار عامّة.

(٢) الهماليج: جمع الهِملاج، والهِملاج والهَمْلكة: حُسنُ سيرِ الدابة في سرعة، والهِملاج: الحسَنُ السيرِ في سرعة. لسان العرب (هملج).

فيها، ونأخذَ معكَ بأجزلِ الأقسامِ منها، فالعذرُ لا يضيقُ عنكَ، واللومُ لا ينبسطُ إليكَ، هاتِ مما ذَخَرْتَهُ لساعاتِ تَفَكُّهِكَ"(١).

استجداء واضح من الكاتب للحصول على شيء من جنى هذه النخلة، وهو يذكرنا بطريقة أبي الفتح الإسكندري بطل مقامات بديع الزمان.

ثم يعمد الكاتب إلى طريقة أخرى ربما يحصل بها على شيء من التمر، فيشرع في ذكر صفات النخل، راصدا أسماءه ومراحلَ نموه، وأسماء ثمره، متتبعا مراحل نضجه، إذ تطلب الجماعة من صاحب النخل أن يعطيهم شيئا من التمر مقابل إمتاعهم بما لديهم من غريب اللغة، ورقيق الأشعار في النخل، وهو نوع من الإغراء والاستثارة له لعله يرق لهم:"جعلنا الله فداكَ، نحن عصابةٌ نتحلَّى بأدبٍ، وننتمي إلى حفظِ غريبٍ، وصياغةِ قريضٍ، وربما لم تُصَدِّقْ في هذا الطريق مَضَاءَنا، ولا قبلتَ يقينًا غَناءَنا، فأرْدْنَا أن نصفَ لك شيئاً من كلام العربِ في النخل وبدءِ نباتهِ، والتمرِ وتلوّنِ حالاتهِ، فإن سرَّكَ ما جئنَا بهِ، وراقكَ ما أفضْنَا فيهِ، جعلتَ جوائزِنا تمرًا، وكان ذلكَ لنا أجرًا".

ثم راح الكاتب- مستطردا ومظهرا ثقافته- يعدد له ما قالته العرب في النخل والتمر: "تقول العربُ لصغارِ النخلِ: الجَثيث، والوذْي، والهِراء، والفَسِيل... فإذا انعقد سَمَّتْهُ: السّيَّاب، فإذا اخضرَّ قبل أن يشتدَّ، سمَّتْهُ: الجَدَال، فإذا عَظُم، فهو البُسْرُ، فإذا صارتْ فيه طرائقُ، فهو المخطَّم، فإذا تغيرتِ البُسْرَةُ إلى الحمرةِ، فهي شُقْحَة، فإذا ظهرتِ الحمرةُ، فهي الزَّهو وقد أزهى... "الخ. وفي هذا النص تقترب هذه الرسالة من المقامة في جانبها التعليمي، لامتزاج السرد بالمسائل اللغوية.

وبعد أن رددوا على سمعه ما قيل في النخل من كلام العرب، لم يغير ذلك من موقفه شيئا، بل استمر على جموده، ولما أحسوا ببخله وشحه الشديد،توجهوا إليه بالخطاب مرة أخرى، ثم ألحوا عليه في الطلب: "فيا أبا عبد الله أمجدنا رطبا، نمجدك خطبا، هذا قليل من كثير، وثماد من بحور، وليس يطيب وصفنا نظما ونثرا لمناقب هذه النخلة إلا بعد اختيارنا منها،وفوز قداحنا بها".

وهنا تتجسد صورة بطل المقامات، الذي لم يجد أمامه وسيلة للتكسب والحصول على المال سوى الاستجداء والاحتيال بأدبه وعلمه وفصاحته، وهو أسلوب بديع الزمان في مقاماته: يقول في القريضية: "ولو شئت للفظتُ وأفضتُ، ولو قلت لأصدرتُ وأوردتُ ولجلوتُ الحق في مَعرضِ بيان يُسمع الصُّمَّ، ويُنزِل العُصْمَ"(٢).

ثم يعرض عليه الكاتب أن يسمعه شعرا في النخل، لعله يتخلى عن شيء من شحه، "فالمنظومُ خدَّاعٌ بحسنهِ، مستميلٌ بطنِّهِ"، لكن هذه الحيلة- أيضا – قد ضاعت سدى، ولم يغير ذلك من موقف صاحب النخل شيئا.

---

(١) الخيس: خاس عهده: نقضه وخانه. الربدة: لعلها الرِّبْذَة (بالذال، وكسر الراء) وهي الشدة والشر يقع بين القوم. لسان العرب (ربذ).

(٢) مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني: ص ١٢.

وفي النهاية يغلظون له في القول إن لم يعطهم من ثمار نخلته: "فإن أنتَ سويْتنَا مع نفسِكَ، فيما تَدُرُّ به عليكَ، وتملأُ منه يديكَ، وإلا نافرناكَ إلى السلطانِ، وألَّبْنا عليكَ أبناءَ الزمانِ، ونستغفرُ الله ونسأله أن يبدلنا من بخلِكَ نوالا، وبمطْلِكَ إعجالا". وفي هذا تأكيد على نزعة الكدية الواضحة في الرسالة من أولها إلى آخرها.

لقد أجاد ابن برد في هذه الرسالة، واستطاع أن يظهر بخل هذا الرجل، ويسخر من البخل والبخلاء في صورة أدبية طريفة.

صلة هذه الرسالة بمقامات بديع الزمان

الذي دعانا إلى أن نقف على أثر بديع الزمان في هذه الرسالة عدة أمور:

أولا- هذه رسالة طريفة في موضوعها، تسخر من البخل والبخلاء -ممثلا في صاحب النخلة - في هذا الإطار الساخر الفكه الطريف، وفيها أسلوب قصصي بارع، - وإن كان بسيطا- وقد دلت على قدرة ابن برد في الترسل والسرد، والحوار، والقص البسيط المتنامي، وهذه العناصر كلها تتسم بها مقامات بديع الزمان.

كما أن براعته في اتخاذه من هذه الحادثة موضوعا للكتابة، وفكرة أقام عليها رسالته أمر واضح بين،يدل على كاتب بارع.

ثانيا- الغرض التعليمي جد واضح في رسالة ابن برد، فهو يتخذ منها وسيلة لاستعراض ثقافته اللغوية، فقد تحدث عن النخلة راصدا أسماءها، وأوصافها، ومراحل تطور ثمرها، حتى يصير رطبا ثم تمرا. هذا كله في إطار بسيط سهل مقبول، تقبل عليه النفس، والغرض التعليمي أحد الأغراض التي وضعت من أجلها المقامة(١)، وامتزاج القالب السردي والقصصي بالمسائل اللغوية والغرض التعليمي، إنما يؤكد لنا تأثر ابن برد بأسلوب بديع الزمان في بعض مقاماته.

ثالثا- إن نزعة الكدية(٢) والاستجداء والحيلة التي ألفناها لدى بطل مقامات الهمذاني بادية جلية في هذه الرسالة، فهي تشبه المقامات من هذه الناحية، ذلك أن المقامة تقوم - في أغلبها- على الكدية والاستجداء والإلحاح في الطلب، والتوسل لذلك بأنواع الحيل الثقافية والأدبية، وهذا واضح بيّن في رسالة ابن برد.

بعد ذلك يمكن أن نقول: إن رسالة النخلة لابن برد الأصغر يظهر فيها بوضوح أثر مقامات بديع الزمان، وهي تقترب منها من الناحية الفنية، فمقومات المقامة فيها بارزة، وعناصرها واضحة، بما يؤكد لنا تأثره ببديع الزمان.

---

(١) انظر -على سبيل المثال- المقامات: الأهوازية ص٤٦، والوعظية ص١١٦، والعلمية ص٢١٢ من مقامات بديع الزمان. والجانب اللغوي جد واضح في جل المقامات.

(٢) أكدى: ألح في المسألة، وكدى الرجلُ وأكدى: قلَّ خيره وعطاءه، وأَكدَى المطر: قلّ ونَكِد، وفي التنزيل العزيز:(وأَعطى قليلاً وأَكْدَى) (النجم الآية ٣٤)، أَي: قَطع القليل، والكدية والكادية: الشدة من الدهر، والكدية:الأرض الغليظة الصلبة. لسان العرب(كدا). فالكلمة تحمل معنى الشدة والصلابة، وشدة الحاجة.

إن أثر بديع الزمان ومقاماته ورسائله بدا واضحا في كتابات الأندلسيين؛ وقد عرفوا قدره ومكانته الأدبية، وتأثروا به، وعارضوا مقاماته كما عارضوا رسائله، وهذا ما أكده الكلاعي بقوله: "ومحاسن أبي الفضل لا تنتهي أو ينتهى عنها، وقد عارضه في هذه المقامات جماعة من الكتاب، بما نزهت عن ذكره هذا الكتاب"(١)، وليته أثبت هذه المعارضات وسجلها في كتابه!

لقد كان المشرق قبلة الأندلسيين يتوجهون إليها في كل أمورهم، ويقيسون إليها أعمالهم وإبداعهم، فهو مهبط الرسالة، ومتنزل القرآن، وأرض الأجداد، ومنبع الثقافات، وموطن العربية الأول الذي ينهلون من موارده، ومع هذا كله فلا يصح للدارس أن ينظر إلى أدب الأندلس على أنه تقليد محض لا جديد فيه، فهذا افتراء وتضليل، وظلم كبير لأهل الأندلس، فبراعة الأندلسي وابتكاره واضحان في شتى المجالات والفنون، فلم يكن عالة على أدباء المشرق، وإن كان تأثر بهم، وقلدهم، واقتفى آثارهم، إلا أنه طور، وجدد، وابتكر!.

خاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم. وبعد:

فقد حاول هذا البحث أن يرسم صورة واضحة لأثر بديع الزمان في النثر الأندلسي، ومدى هذا الأثر في كتابات الأندلسيين، وقد انتهى إلى النتائج والحقائق التالية:

- قرأ كتاب الأندلس رسائل بديع الزمان، ونسجوا على منوالها، وعارضوها، ومن هؤلاء عبد الوهاب بن حزم، إذ وجدنا صاحب الذخيرة يسوق لنا رقعة من إنشائه يعارض بها رسالة لبديع الزمان، سار فيها على نهجه وصب على قالبه.

- إن معارضة ابن حزم لبديع الزمان، وتأثر كتاب الأندلس به، إنما تؤكد لنا أثر هذا الكاتب المشرقي فيهم، وصدى رسائله في النثر الأندلسي، وهذا يكشف لنا عن تتبعهم لكتابات المشرق وآثاره، ونظرتهم إليه نظرة إكبار وتمجيد.

- كما نجد أثر بديع الزمان واضحا في رسائل كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري، فقد صارت طريقته في الكتابة مثلا يحتذى في المشرق والأندلس منذ القرن الرابع الهجري، وقد وقع كتاب الأندلس أسرى لهذه الطريقة واحتفوا بها في كتاباتهم، كابن أبي الخصال، وابن مغاور الشاطبي، وابن عميرة المخزومي، وغيرهم.

(١) إحكام صنعة الكلام: ص ٢٠٤ .

- لم يقف تأثر الأندلسيين ببديع الزمان عند حد المعارضة كما فعل ابن حزم، وإنما تعدى ذلك للمفاضلة والمقارنة، وهو ما قام به أبو محمد عبد الله بن القاسم الفهري الذي فاضل بين بديع الزمان وأبي إسحاق الصابي، وقد رد على هذه المفاضلة عبد الله بن أبي الخصال، فراح يفندها، ويصدر رأيه في بديع الزمان وأبي إسحاق في رسالة طويلة.

هذه المفاضلة تؤكد على منزلة بديع الزمان في الأندلس؛ وتعكس عناية الأندلسيين بالأدب المشرقي، ونظرتهم إليه، ومتابعتهم إياه متابعة دقيقة، ومحاولة تمثلهم هذا الأدب في نتاجهم الفني، كما توضح أثر بديع الزمان في كتاباتهم، وتأثرهم به، وتؤكد على مقدرته الأدبية والفنية.

عارض بعض كتاب الأندلس مقامات بديع الزمان، لكن هذه المقامات تختلف عن مقامات بديع الزمان من حيث موضوعها وطبيعتها، فقد انتفى من بعضها عنصرا الكدية والحيلة، واقتربت من الرسالة في موضوعاتها وأغراضها.

بدا أثر مقامات بديع الزمان واضحا في بعض كتابات ابن شهيد وابن برد الأصغر، فرسالة التوابع والزوابع تؤكد لنا تأثره ببديع الزمان وإعجابه بكتاباته، ونسجه على منواله، وهذا يكشف عن أثر بديع الزمان في كتاب الأندلس.

كما أن رسالة النخلة لابن برد الأصغر يظهر فيها بوضوح مقوّمات المقامة وعناصرها، وهي أكمل من الناحية الفنية وأجمع لمقومات هذا اللون من الأدب، بما يؤكد تأثره ببديع الزمان.

وأخيرا: إن أثر بديع الزمان ومقاماته ورسائله بدا واضحا في كتابات الأندلسيين؛ وقد عرفوا قدره ومكانته الأدبية، وتأثروا به، وعارضوا مقاماته كما عارضوا رسائله، بما يشهد بقدرته الإبداعية والفنية، ويكشف عن شخصية متفردة استطاعت أن تربط بين كتابات الأندلسيين والمشارقة، وتعمق الإحساس بالتلاحم بين الأدبين، فكانت كتاباته ثرة غنية تزخر بالموضوعات التي تغري بالبحث والدراسة.

والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله - تعالى - على سيدنا محمد وآله.

فهرس المصادر والمراجع

أولا- الكتب

- ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره: دراسة وتحقيق: د. محمد بن شريفة، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، الأولى١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- أبو المُطرِّف أحمد بن عَميرة المخزومي، حياته وآثاره: د. محمد بن شريفة، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ١٣٨٥هـ- ١٩٦٦م.
- إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس: ابن عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: د.محمد رضوان الداية،عالم الكتب، بيروت، الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير: د. محمد رجب البيومي، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الملك سعود الإسلامية، السعودية ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، السابعة ١٩٩٢م.
- أصول النقد الأدبي: د.أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، العاشرة ١٩٩٤م.
- الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي: صححه وضبطه وحققه: أحمد أمين وأحمد الزين، س الذخائر(٨٣)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٢م.
- بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية: د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
- تاريخ الأدب الأندلسي(عصر سيادة قرطبة): د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٩م.
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): د. إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، السادسة١٩٨١م.
- تاريخ النقائض في الشعر العربي: د.أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الثانية ١٩٥٤م.
- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس: د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، دمشق، الثانية ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
- التيار المشرقي في الأدب الأندلسي: د. حسن عباس، دار الحضارة للطباعة، القاهرة ١٩٩٤م.
- جذوة المقتبس قي ذكر ولاة الأندلس: أبو عبد الله محمد الحميدي (ت٤٨٨هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة٢٠٠٨م.
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، تحقيق: علي محمد البجاوي، طبع نهضة مصر، القاهرة ١٩٨١م.

- الحوار الأدبي بين المشرق والأندلس، المتنبي والمعري نموذجين: د.أيمن محمد ميدان، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠١م.
- ديوان ابن بسام البغدادي(علي بن محمد بن نصر)، تحقيق: مزهر السوداني، مؤسسة المواهب للطباعة والنشر، بيروت، الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
- ديوان ابن خفاجة: تحقيق: د. سيد غازي، منشاة المعارف، الإسكندرية، الثانية ١٩٧٩م.
- ديوان ابن زيدون ورسائله: تحقيق: علي عبد العظيم، دار نهضة مصر، القاهرة١٩٨٠م.
- ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- ديوان طرفة بن العبد: شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال، إدارة الثقافة والفنون، البحرين، الثانية٢٠٠٠م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسّام الشنتريني (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م.
- رسائل ابن أبي الخصال: تحقيق: د.محمد رضوان الداية، دار الفكر، سورية، الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.
- رسائل ابن حزم الأندلسي: تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الأولى ١٩٨٣م.
- رسائل ومقامات أندلسية، تحقيق: د. فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٩م.
- زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني، تحقيق د.صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيد، بيروت، الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠١م
- شرح مقامات الحريري لأبي العباس الشريشي: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي:د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م.
- في النقد الأدبي: د.عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢م.
- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: أبو نصر الفتح ابن خاقان، تحقيق: د.حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن، الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان: إبراهيم الأحدب الطرابلسي، دار التراث، بيروت١٣٠٧هـ- ١٨٩٠م.
- كنوز الأجداد: محمد كرد علي، بغداد ٢٠١٠م.
- لسان العرب: جمال الدين بن منظور، دار المعارف، القاهرة ، بدون.
- مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته:د.مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، الثانية١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- محاضرات مجمعية: د. شوقي ضيف، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

- مسائل الانتقاد: محمد بن شرف القيرواني، تحقيق: د.النبوي عبد الواحد شعلان، مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٨٢م.
- المعارضة في الأدب العربي: د. إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، القاهرة، الأولى١٤٠١هـ- ١٩٨٠م.
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): ياقوت الحموي، تحقيق:د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الأولى ١٩٩٣م.
- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨م.
- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار: لسان الدين بن الخطيب السلماني، تحقيق ودراسة: د. محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٢م
- المُغرِب في حلى المغرب: ابن سعيد الأندلسي، تحقيق: د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م.
- مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني: شرح: محمد محيي الدين عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٢م
- المقامة: د. شوقي ضيف ، دار المعارف، القاهرة، السابعة ١٩٩٥م.
- مقدمة ابن خلدون (وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون): عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٤٣١هـ- ٢٠٠١م.
- من حديث المعارضات الأدبية: د.عبد الوارث الحداد، مطبعة السعادة، القاهرة، الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.
- النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري مضامينه وأشكاله: د.على بن محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الأولى ١٩٩٠م.
- النثر الفني في القرن الرابع الهجري: د. زكي مبارك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٠م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:الشيخ أحمد بن المقَّرّي التلمساني، تحقيق: د إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد أبي بكر بن خلكان، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان١٩٧٢م.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: أبو منصور الثعالبي: تحقيق: د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

ثانيا- الدوريات

- مجلة الرسالة: العدد (٤٥)، بديع الزمان الهمذاني: د.عبد الوهاب عزام، القاهرة، مايو ١٩٣٤م.
- مجلة علامات في النقد الأدبي: مجلد (٥)، الجزء (٢٠)، خلاف بين أديبين أندلسيين في المفاضلة بين أبي إسحاق الصابي وبديع الزمان الهمذاني: محمد الهدلق، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية.

- مجلة المجلة: السنة الخامسة، العدد (٦١)، رمضان ١٣٨١هـ- ١٩٦٢م: المقامة من أدب الحياة: إبراهيم الإبياري.